سيكولوجية الهَيْبَةِ

كَيْفَ نُلْهِمُ الْخُشُودَ.. دُونَ أَنْ نَفْقِدَ الْإِنْسَانَ

خالد صودكا

مَرَاقِي الهَيْبَةِ الخَطِيرَة

مِنْ جَبَرُوتِ الهَيْبَةِ المَجْبُورَةِ وَهَنْدَسَةِ المَجَازَاتِ إِلَى ظِلَالِ الإِنْسَانِيَّةِ المَخْفِيَّةِ..

تَجَلِّي الهَيْبَةِ وَقِيَادَةُ الأَهْوَاءِ

يُحَدِّثُونَكَ عَنِ "الهَيْبَةِ" كَأَنَّهَا غَيْمَةٌ سِحْرِيَّةٌ هَبَطَتْ مِنَ السَّمَاءِ، أَوْ هَالَةٌ غَامِضَةٌ يُحِيطُ بِهَا الفَلَاسِفَةُ أَجْسَادَ النُّبَلَاء؛ وَمَا هِيَ فِي حَقِيقَةِ الأَمْرِ إِلَّا حَظٌّ مَحْضٌ، وَمِصْيَدَةٌ وَقَعَ فِي شِبَاكِهَا الأَقِلَّاءُ فَعَرَفُوا كَيْفَ يُدِيرُونَ اللُّعْبَةَ بِلَا وَعْيٍ مِنْهُمْ فِي الِابْتِدَاء. إِنَّ الَّذِينَ يَعْتَزِلُونَ النَّاسَ صَوْنًا لِوَقَارِهِمْ وَاهِمُون

فَالْهَيْبَةُ لَا تُولَدُ فِي عُزْلَةِ الصَّحْرَاء...

بَلْ تَقْتَضِي الخِبْرَةَ وَالذَّوَبَانَ فِي وَعْيِ المُجْتَمَعِ وَكُلِّ مَا فِيهِ؛ أَنْ تَتَمَاشَى مَعَ عَالَمِهِمْ، أَنْ تَكُونَ أَنْتَ هُوَ هَذَا المُجْتَمَع، تَذُوبُ فِي أَمَانِيهِ وَتَعْتَنِقُ مَظَاهِرَ بَلَاهَتِهِ وَمَا يَصْطَفِيهِ.

مَا أَكْثَرَ الَّذِينَ يَلُوذُونَ بِالعُزْلَةِ ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّهُمْ يَرْتَدُونَ مَهَابَةَ المُلُوكِ، وَمَا هُمْ فِي الحَقِيقَةِ إِلَّا عَبِيدٌ يَهْرَبُونَ مِنْ عَرَائِهِمْ!

إِنَّ النَّأْيَ لَيْسَ مَلْجَأً لِلْخَائِفِينَ، بَلْ هُوَ مَضْجَعُ الجَبَابِرَةِ؛ حَيْثُ يَتَحَوَّلُ المَعْزِلُ إِلَى كِيرٍ صَاهِرٍ تُشَرَّحُ فِيهِ غَرَائِزُ القَطِيعِ، وَتُصَاغُ مِنْ فَوْقِهِ مَقَادِيرُ القُوَّةِ وَالمَصَالِحِ بِيَدٍ بَارِدَةٍ لَا تَرْتَجِفُ.

أَمَّا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَعْتَزِلُونَ لِمُجَرَّدِ الِاعْتِزَالِ، فَلَا يَصْنَعُونَ مَجْدًا؛ إِنَّمَا هُمْ يَمُوتُونَ فِي تُرَابِ النِّسْيَانِ، مُتَشَبِّثِينَ بِخَفَاءٍ لَا يَعْبَأُ بِهِ أَحَدٌ، وَبِتَعَالٍ سَاقِطٍ لَيْسَ لَهُ مِنَ الوُجُودِ إِلَّا مَا فِي أَذْهَانِهِمْ المَرِيضَةِ مِنَ الأَوْهَامِ الرَّخْوَةِ.

وإِيَّاكَ أَنْ تَكُونَ وَاعِيًا صَارِمًا فِي حَضْرَتِهِمْ

فَالْوَعْيُ الزَّائِدُ عَنِ الحَدِّ سِجْنٌ يَفْصِلُكَ عَنْ نَبْضِ الحُشُودِ وَيُفْشِلُ مَا تَبْتَغِيه؛ عَلَيْكَ أَنْ تَنْغَمِسَ فِي غَيْبُوبَتِهِمْ لِتَتَعَرَّفَ عَلَى العَوَاطِفِ الَّتِي تُحَرِّكُ النِّسَاءَ وَالرِّجَال، ثُمَّ تَأْتِي اللَّحْظَةُ الحَاسِمَة: لَحْظَةُ الِانْفِرادِ وَالِاسْتِعْلَاء.

هُنَا طَلِيعَةُ القُوَّةِ؛ عِنْدَمَا تَسْتَعِيدُ وَعْيَكَ الخَاصَّ بَعْدَ الذَّوَبَان، تَنْفَصِلُ عَنْهُمْ كَإِلَهٍ يَقِفُ خَلْفَ مَسْرَحِ الدُّمَى

تَضَعُ الخُيُوطَ لِمَصَالِحِكَ الشَّخْصِيَّة، وَتَسْتَدْرِجُ تِلْكَ العَوَاطِفَ الَّتِي عِشْتَهَا مَعَهُمْ لِتَسُوقَهُمْ إِلَى حَيْثُ تَتَشَاء.

نَعَمْ.. لَقَدْ كُنْتَ مِنْهُمْ لِتَعْرِفَ كَيْفَ تَسُودُ عَلَيْهِمْ، وَتِلْكَ هِيَ خِبْرَةُ الحَيَاةِ الَّتِي لَا يَفْقَهُهَا دَهْمَاءُ الأَغْبِيَاء، لَقَدْ عِشْتَ مَعَهُمْ، وَالآنَ جَاءَتِ المَرْحَلَةُ الأَشَدُّ خُطُورَة؛ عَلَيْكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ العَوَاطِفَ لَيْسَتْ لَوْنًا وَاحِداً، بَلْ هِيَ طَبَقَاتٌ وَفَوَارِقُ يَضِيعُ فِيهَا الغِرُّ الجَهُول.

هُنَا تَقِفُ مَهَمَّتُكَ الصَّعْبَة: تَوْضِيحُ المُلْتَبِسِ وَتَفْكِيكُ المُعَقَّد، فَإِنَّ مَشَاعِرَ المُجْتَمَعِ حِبَالٌ مُتَشَابِكَةٌ وَمَتَاهَاتٌ يَسْكُنُهَا العَمَاء.

اصْغِ إِلَيَّ جَيِّداً.. إِيَّاكَ أَنْ تَظُنَّ أَنَّ الكِبْرِيَاءَ يَعْنِي أَنْ تَخْضَعَ لَكَ أَعْتَى عَوَاطِفِهِمْ وَتَنْقَادَ لِسُلْطَانِك؛ تِلْكَ أَوْهَامُ المَجَانِينِ وَالضُّعَفَاء! العَوَاطِفُ الكُبْرَى كَالعَوَاصِفِ العَاتِيَةِ لَا أَقْدَامَ لَهَا لِتَرْكَع، وَلَكِنَّ لَهَا مَسَارَاتٍ يُتْقِنُ السَّيِّدُ التَّنَبُّؤَ بِهَا وَيَعْرِفُ الخُطُوَاتِ الَّتِي يَجِبُ اتِّبَاعُهَا لِتَرْوِيضِهَا وَتَسْيِيرِهَا فِيمَا يَبْتَغِيه.

إِنَّهَا الحِرْفَةُ يَا صَدِيقِي، أَنْ تَكُونَ مُحْتَرِفاً فِي صِنَاعَةِ الإِقْنَاعِ وَالِاسْتِدْرَاجِ، لَا طَاغِيَةً يَنْطَحُ الصَّخْرَ بِمَطْرَقَةٍ مِنْ زُجَاجٍ.

والخِبْرَةُ فِي جَوْهَرِهَا ذَاكَ الخَازِنُ الأَمِينُ لِعَثَرَاتِ البَشَرِيَّةِ؛ هِيَ ذَاكِرَةٌ مُظْلِمَةٌ تُدَوِّنُ الصُّوَرَ، وَتَحْفَظُ النَّمَاذِجَ الَّتِي عَبَرَتْهَا المَجْتَمَعَاتُ

لَمْ تُوجَدْ لِتَمْنَحَكَ السَّكِينَةَ، بَلْ لِتُعِيرَكَ عُيُونًا تَرَى بِهَا كَيْفَ صُنِعَتِ المَصَائِبُ الغَابِرَةُ، فَتَقْتَبِسَ مِنْ نَارِهَا لِحَرِيقِكَ القَادِمِ

مُهِمَّةُ الخِبْرَةِ أَنْ تَكْسُوَ الوَعْيَ بِأَقْنِعَةِ المَاضِي، فَتُسَجِّلَ لَكَ نَمَاذِجَ الحِيَلِ الَّتِي مَرَّ بِهَا السَّلَفُ. هِيَ لَيْسَتْ طَوْقَ نَجَاةٍ، بَلْ هِيَ شَرَكٌ بَلِيغٌ يُعَلِّمُكَ كَيْفَ تَقُودُ الآخَرِينَ إِلَى حُتُوفِهِمْ، بِذَاتِ الطَّرِيقَةِ الَّتِي سَقَطَ فِيهَا الأَوَّلُونَ!

تَعْلَمُ مَتَى تَسِيرُ فِي رِكَابِ غَضَبِهِمْ، وَمَتَى تَسْتَغِلُّ خَوْفَهُمْ، إِنَّ الخِبْرَةَ لَا تَبْنِي الحِكْمَةَ دَائِمًا، بَلْ تُرَتِّبُ الخَدِيعَةَ! هِيَ تَمْنَحُكَ هَيْكَلَ الفِكْرَةِ وَتَارِيخَ السُّقُوطِ البَشَرِيِّ؛ لِتَكُونَ لَكَ مُعِينًا وَمُحَرِّضًا حِينَ تَشْتَهِي النَّفْسُ صُنْعَ المَآزِقِ. إِنَّهَا الدَّلِيلُ المَكْتُوبُ بِدِمَاءِ التَّجَارِبِ، الَّذِي يَهْدِيكَ كَيْفَ تُصِيبُ الهَدَفَ بِأَقَلَّ النَّمَاذِجِ خَطَأً، وَأَعْظَمِهَا نَكَالًا

ضَع أَقْدَامَهُمْ عَلَى الطَّرِيقِ الَّذِي رَسَمْتَهُ أَنْتَ فِي لَيْلِ الخَفَاء.

سَيَنْقَادُونَ إِلَيْكَ ظَانِّينَ أَنَّهُمْ يَتْبَعُونَ أَحْلَامَهُمْ..

بَيْنَمَا هُمْ فِي الحَقِيقَةِ لَا يَفْعَلُونَ شَيْئاً سِوَى تَحْقِيقِ مَا تَشْتَهِيه!

إنَّ عِظَمَ عَوَاطِفِ المُجْتَمَعِ أَنَّهَا عَمْيَاء، لَا هَادِيَ لَهَا وَلَا عَقْلَ يُرْشِدُهَا؛ تَقُودُهَا الرِّيَاحُ أَنَّى شَاءَتْ تَمَاماً مِثْلَ السَّحَاب!

وَمِنْ هُنَا تَبْدَأُ أُسْطُورَتُكَ: عَلَيْكَ أَنْ تَتَعَلَّمَ كَيْفَ تَحْكُمُ السَّحَاب، كَيْفَ تُوَجِّهُ مَطَرَهُ أَوْ صَوَاعِقَهُ لِتَظْهَرَ هَيْبَتُكَ الحَقِيقِيَّةُ الَّتِي يَجْهَلُهَا الدَّهْمَاء

لَقَدْ تَعَامَى الفَلَاسِفَةُ الرُّومَانْسِيُّونَ وَرَعَاعُ الخَلْقِ عَنْ هَذِهِ الحَقِيقَة، فَأَخَذُوا يَتَحَدَّثُونَ عَنِ الهَيْبَةِ كَأَنَّهَا مَلَاكٌ هَبَطَ بِسُلْطَانٍ نَقِيٍّ مِنَ السَّمَاء، وَمَا دَرَوْا أَنَّ الهَيْبَةَ صِنَاعَةُ مَنْ يَعْرِفُ كَيْفَ يَسُوقُ الأَهْوَاءَ وَمَا تَنْتَهِيه.

لِذَا، فَكُلُّ مَنْ يَبْتَغِي الهَيْبَةَ الكُبْرَى، عَلَيْهِ أَلَّا يَطْلُبَ السَّيْطَرَةَ الفَجَّةَ الَّتِي تَقْمَعُ النَّاسَ بَلْ يَنْشُدُ التَّحَكُّمَ الذَّكِيَّ فِيهِمْ؛ كُنْ مِثْلَ المَلَاكِ

مِيكَائِيلَ الَّذِي يَقُودُ الرِّيَاحَ وَيُصَرِّفُ المَطَرَ! لَكِنْ.. لِتَكُونَ مِيكَائِيلَ هَذَا، فَتِلْكَ لَيْسَتْ مَهَمَّةً سَهْلَةً أَيُّهَا البَشَرِيُّ الضَّعِيف، أَيُّهَا البَاحِثُ عَنْ قَعْقَعَةِ الأَصْوَاتِ وَتَصْفِيقِ الأَيْدِي وَالتَّشْجِيعِ الَّذِي تَبْتَغِيه!

تَبًّا لِهَذِهِ الأُمُورِ السَّخِيفَةِ التَّافِهَةِ الَّتِي تُهْلِكُ الكِبْرِيَاء؛ إِنَّ طَلَبَ الثَّنَاءِ لَا يَمْنَحُكَ أَبَداً أَنْ تَتَحَكَّمَ فِي أَعْتَى عَوَاطِفِ البَشَر، أَوْ أَنْ تُرَوِّضَ القُوَى العَمْيَاءَ لِهَيْجَانِ الجَمَاهِيرِ وَمَا يَعْتَرِيه.

المَلَاكُ لَا يَنْتَظِرُ مَدْحاً مِنَ الطِّين، بَلْ يُمْسِكُ بِأَزِمَّةِ الرَّعْدِ لِيَصْنَعَ رَبِيعَهُ أَوْ خَرِيفَهُ كَمَا يَشَاء.

يُفْرَضُ عَلَى المَرْءِ أَحْيَانًا أَنْ تَنْطَمِسَ هُوِيَّتُهُ فِي هُوِيَّةِ المُجْتَمَعِ رَغْبَةً فِي الانْتِمَاءِ، لِيَذُوبَ فِي جَسَدِ المَجْمُوعِ وَيَسِيرَ وَفْقَ هَوَاهْ؛ وَمَهْمَا طَالَتِ المُدَّةُ فِي ذَلِكَ النَّهْرِ الفَوْضَوِيِّ المَلِيءِ بِالاسْتِثْنَاءِ، فَإِنَّ طَبِيعَةَ الرُّقُودِ تَسْلُبُ الإِنْسَانَ عَقْلَهُ وَوَعْيَهْ. هُنَاكَ، قِلَّةٌ نَادِرَةٌ يَسْتَطِيعُونَ الخُرُوجَ مِنْ ذَلِكَ العَمَاءِ، وَقِلَّةٌ أَقَلُّ يَبْقَوْنَ فِي جَوْفِ التَّيَّارِ..

لَكِنْ لَا لِيُجَارُوا جَرْيَهْ هَؤُلاء في الجَوف؛ بَلْ يَقْبِضُونَ عَلَى الصَّخْرِ لِيَشُقُّوا طُرُقًا تَكْبَحُ هَذَا المَاءْ، مَسَارَاتٍ جَدِيدَةً تَخْدِمُ حَتْمًا مَصْلَحَتَهُمْ وَتُعِيدُ لِلْمَرْءِ وَجْهَهْ

أَمَّا إِذَا اخْتَرْتَ الانْفِصَالَ عَنِ التَّيَّارِ وَالوُقُوفَ فِي عَلْيَاءْ، فَلَا تُقَاوِمْهُ بِعُنْفٍ، بَلْ بِنُعُومَةٍ دَعِ المِيَاهَ تُسَارِحُ قَدَمَيْك لِتَفْهَمَ اتِّجَاهَهْ

فَالآنَ يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَسْتَعِيدَ ذَاتَكَ بَعْدَ طُولِ عَنَاءْ، لِتَعْرِفَ إِلَى أَيِّ مَسَارٍ تُرِيدُ أَنْ تَشُقَّ هَذِهِ المِيَاهَ، وَكَيْفَ تَصْنَعُ مِنْهَا مَجَارِيَ جَدِيدَةً تَقُودُهَا حَوْلَ قَلْعَتِكَ وَتُطَوِّعُ لِمَصَالِحِكَ جَرْيَهْ.

هُنَا حِينَمَا تَقِفُ كَصَاحِبِ العَزِيمَةِ المَشْحُونَةِ بِالإِبَاءْ، تَتَجَلَّى الهَيْبَةُ فِي صُورَتِهَا الحَقِيقِيَّةِ الَّتِي تُحَيِّرُ العُقُولَ وَتَفْرِضُ شَبَهَهْ، حَتَّى ظَنَّ بَعْضُ الفَلَاسِفَةِ الِاجْتِمَاعِيِّينَ أَنَّ كُنْهَهَا مَعْزُولٌ عَنِ التَّفْسِيرِ وَالِاحْتِوَاءْ، وَأَنَّ المَرْءَ لَا يَقْتَبِسُهَا بَلْ هِيَ مَلَكَةٌ يَمْتَلِكُهَا وَحْدَهُ وَتُثْبِتُ وَعْيَهْ.

إِنَّهَا الخِبْرَةُ، وَالتَّمَاهِي، وَقَلِيلٌ مِنْ حَظٍّ عَاثِرٍ يَنْفُضُ عَنْكَ غُبَارَ الاسْتِخْذَاءْ، لِيُعِيدَ لِلْوَاقِفِ عَلَى النَّهْرِ نَبَاهَتَهُ وَكِبْرِيَاءَهْ؛ فَمَا أَنْدَرَ

أُولَئِكَ الذِينَ يَسْتَيْقِظُونَ مِنْ ذَلِكَ السُّبَاتِ الطَّوِيلِ لِيَمْلِكُوا زِمَامَ أَنْفُسِهِمْ، وَيُشْعِلُوا فِي عَتْمَةِ الجَهْلِ ضِيَاءَهْ

فِي عُمْقِ الْفَيَافِي الَّتِي لَا تَنْتَهِي، كَانَ يَمْشِي بِخُطُوَاتٍ لَهَا رَنِينُ الْقَضَاءْ، تَسْبِقُهُ هَيْبَةٌ طَاغِيَةٌ تَحْنِي لَهَا الرِّمَالُ رُؤُوسَهَا، وَقَدْ مَضَى يَلْتَمِسُ لِقَوْمِهِ حَاجَاتِهِمُ الْيَوْمِيَّهْ.

كَانُوا يَسِيرُونَ وَرَاءَهُ بِعَوَاطِفَ خَامِدَةٍ، إِذْ تَتَحَرَّكُ فِي صُدُورِهِمْ غَرِيزَةٌ جَدِيدَةٌ لَمْ يَفْهَمُوا سِرَّهَا، فَبَدَوْا تِجَاهَهَا بِلَا حِسٍّ كَالْمَسَاءْ

لَكِنَّهُ هُوَ، ذَلِكَ الشَّفِيعُ الَّذِي يَقْرَأُ الْغَيْبَ فِي عُيُونِ الرِّيَاحِ، أَبْصَرَ جُوعَ الْأُمَمِ حَوْلَهُ إِلَى نُورِ الْإِيمَانِ، ذَلِكَ الْوَحْيِ الَّذِي يَهَبُ الْحَيَاةَ مَعَانِيَهَا السَّامِيَّهْ.

وَفِي صَمْتِ اللَّيْلِ الْعَمِيقِ، حَيْثُ تَلَفَّعَ بِعَبَاءَةِ الْغُمُوضِ تَحْتَ سَقْفٍ مِنَ النُّجُومِ وَالْفَضَاءْ، سَأَلَ رُوحَهُ الْمُثْقُوبَةَ بِالْكِبْرِيَاءِ: "مَاذَا أُرِيدُ أَنَا مِنْ هَذِهِ النُّفُوسِ الْخَاوِيَهْ؟

لَمْ يَكُنْ يَطْلُبُ سَكِينَةً أَوْ دُعَاءً، بَلْ صَحَا فِي دَاخِلِهِ طُمُوحٌ كَالْبَحْرِ لَمْ تَشْهَدْهُ الصَّحَارِي مِنْ قَبْلُ، إِنَّهُ الْحُكْمُ وَالتَّسَيُّدُ وَالِاعْتِلَاءْ، أَرَادَ أَنْ

يَكُونَ مَلِكًا لِلْأَرْوَاحِ قَبْلَ الْأَجْسَادِ، لِيَبْنِيَ مَجْدًا تَتَوِيجُهُ سَطْوَتُهُ السُّلْطَانِيَّهْ.

وَلِأَنَّهُ لَمْ يَرْضَ بِأَنْ تَبْقَى نُفُوسُهُمْ رَاكِدَةً، فَقَدْ هَوَى بِعَزْمِهِ كَالصَّاعِقَةِ لِيَشُقَّ لِلْمَاءِ مَجْرًى جَدِيدًا، نَهْرًا تَتَدَفَّقُ فِيهِ عَوَاطِفُهُمُ الْمَكْبُوتَةُ كَيْ تَمْضِيَ فِي جَلَاءْ، وَقَادَهُمْ بِسِحْرِ حُضُورِهِ الْمَهِيبِ الَّذِي يَسْلُبُ الْعُقُولَ، فَتَبِعُوهُ عَمْيَانًا يَسِيرُونَ خَلْفَ ظِلِّهِ بِطَاعَةٍ أَبَدِيَّهْ.

وَانْظُرْ كَيْفَ صَارَ الْمَوْتُ عَلَى عَتَبَاتِ اسْمِهِ لَحْنًا يَعْشَقُهُ الشُّعَرَاءْ، إِذْ أَصْبَحَتِ الدِّمَاءُ الْمَسْفُوكَةُ فِي سَبِيلِهِ تُرَاتِيلَ مُقَدَّسَةً، وَغَدَا الِاسْتِشْهَادُ لِأَجْلِهِ أُمْنِيَةً غَالِيَهْ. فَقَدْ جَعَلَ مِنَ الْبَذْلِ وَالْفِدَاءِ فَضِيلَةً خَارِقَةً تَنْحَنِي لَهَا جِبَاهُ الْعُظَمَاءِ، وَتَعْبُرُ نَشِيدًا خَالِدًا كُلَّ الْعُصُورِ وَالدُّهُورِ الْآتِيَه

إِنَّهَا الْهَيْبَةُ فِي أَسْمَى تَجَلِّيَاتِهَا؛ حَيْثُ يَخْلُدُ مَنْ تَمَسَّكَ بِالصُّخُورِ الثَّابِتَةِ وَأَبَى أَنْ يَنْجَرِفَ طَوِيلًا نَحْوَ مَصَبِّ الْمِيَاهِ الْمُتَدَفِّقَةِ فِي تِلْكَ الْأَزْمِنَةِ الَّتِي لَا تَعْرِفُ الِانْتِهَاءْ، لِيَبْقَى شَامِخًا كَالْقَدَرِ، يَتَحَدَّى بِثَبَاتِهِ كُلَّ التَّحَوُّلَاتِ الْكَوْنِيَّهْ

وَتَحْتَ ظِلِّ هَذَا التَّارِيخِ، تَقِفُ قِلَّةٌ نَادِرَةٌ اعْتَلَتْ صَهْوَةَ الْوُجُودِ لِتَحْكُمَ وَتَقُودَ، مُدَّخِرَةً فَضَائِلَهَا وَثَرْوَةَ رُوحِهَا لِصِنَاعَةِ فِعْلِ الِابْتِدَاءْ، حَيْثُ تَشُقُّ لِلْحَيَاةِ مَجَارِيَ جَدِيدَةً لَمْ يَسْبِقْ لِقَطَرَاتِ النَّهْرِ الْمُتَدَفِّقِ أَنْ تَلْتَفِتَ نَحْوَ مَسَارِهَا، أَوْ تَعْرِفَ كَيْفَ تَرْتَادُ أَعْمَاقَهَا الْقَاصِيَّهْ.

إِنَّهَا تِلْكَ الْعَوَاطِفُ الْبَشَرِيَّةُ الْغَائِبَةُ، الَّتِي تَمْشِي عَمْيَاءَ عَنْ كُلِّ نُقْطَةٍ يَرْسُمُهَا الْمُبْدِعُونَ، وَصُنَّاعُ الْحِكْمَةِ، وَقَادَةُ الْفَتْحِ الَّذِينَ يَنْظُرُونَ مِنْ أُفُقِ السَّمَاءْ، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَا يَرْتَضُونَ بِالْقَلِيل...

بَلْ يُرِيدُونَ تَجَاوُزَ حُدُودِ الْبَشَرِ، وَإِخْضَاعَ كُلِّ مَنْ تَمَرَّدَ تَحْتَ سُلْطَانٍ قَاهِرٍ مِنْ صُنْعِ هَيْبَتِهِمْ وَقُوَّةِ ظُهُورِهِمْ السَّرْمَدِيَّهْ.

وَلِتَحْكُمَ قَبْضَتَكَ عَلَى تِلْكَ الْعُقُولِ، عَلَيْكَ أَنْ تُغَذِّيَ النَّاسَ بِالْمُكَافَأَةِ كَيْ تَسْتَمِرَّ السَّطْوَةُ وَالِاحْتِوَاءْ، فَلَا تَكُنْ بَخِيلًا تِجَاهَ ضَعْفِهِمْ، لِأَنَّ هَذِهِ الْعَوَاطِفَ الْمُنْقَادَةَ تَحْتَ سُلْطَانِ هَيْبَتِكَ تَحْتَاجُ دَوْمًا إِلَى مُبَادَلَةٍ ذَكِيَّهْ

مَاذَا سَتُطْعِمُ الْحِصَانَ الْهَائِجَ وَأَنْتَ تُرِيدُ أَنْ تَقْطَعَ بِهِ الْبُلْدَانَ الْمُتَبَاعِدَةَ كَيْ تَبْلُغَ قِمَمَ الْعَلْيَاءْ؟

إِنَّ لِكُلِّ زَمَنٍ قُوتًا يَسُوقُ الْقَطِيعَ؛ لَقَدِ اسْتَخْدَمَ أَسْلَافُنَا الدِّينَ قَدِيمًا، وَصَنَعُوا لِلنَّاسِ مِنَ الْآلِهَةِ دُرُوعًا حَامِيَّهْ، ثُمَّ جَاءَ مَنْ بَعْدَهُمْ بِالْوُعُودِ الْبَرَّاقَةِ لِيَشْتَرُوا بِهَا النُّفُوسَ وَالْوَلَاءْ.

فَمَاذَا تَنْتَظِرُ أَنْتَ الْآنَ، أَيُّهَا الْمُتَعَطِّشُ إِلَى التَّحْرِيضِ وَالْقَامَةِ السُّلْطَانِيَّهْ؟

لَا تَنْتَظِرْ حِكْمَةَ الْفَلَاسِفَةِ، وَلَا تَبْحَثْ عَنْ مَنْطِقِ الْعَقْلِ فَلَيْسَ لِلْعَقْلِ هُنَا رَجَاءْ!

فَقَطْ، قُلْ لِلنَّاسِ إِنَّ جَلَالَ ظُهُورِكَ سَيَقْلِبُ هَذِهِ الْأَرْضَ

وَيَنْقُلُهَا مِنْ مَجَارِيهَا الْقَدِيمَةِ إِلَى مَجَرَّاتٍ بَعِيدَةٍ قَاصِيَّهْ

إِنَّ هَذَا الْوَعْدَ الْمُسْتَحِيلَ

وَحْدَهُ كَافٍ لِيَصْرُخُوا بَيْنَ يَدَيْكَ بِالثَّنَاءْ:

هَذَا هُوَ الرَّجُلُ الْمَطْلُوبُ، هَذَا هُوَ نَبِيُّنَا الَّذِي يَهْدِي الْخَلَائِقَ، هَذَا هُوَ قَائِدُنَا فِي الْمَلَاحِمِ الْقَوِيَّهْ، هَذَا هُوَ الْإِلَهُ الْمَعْبُودُ، هَذَا هُوَ عَيْنُ الْحُبِّ وَمُعْجِزَةُ التَّضْحِيَةِ وَالْفِدَاءْ!

إِيَّاكَ أَنْ تَتَصَادَمَ مَعَ جُمُوعِهِمْ، بَلْ كُنْ أَنْتَ الْمَصَبَّ الْهَادِئَ الَّذِي تَتَدَفَّقُ نَحْوَهُ مِيَاهُهُمْ عَفْوِيًّا لِكَيْ يَتَّبِعُوكَ بِثِقَةٍ عَمْيَاءْ، لَا تَصْرُخْ فِي وُجُوهِهِمْ، وَلَا تُهَدِّدْ سُكُونَهُمْ، وَلَا تَلْعَبْ أَبَدًا دُورَ الضَّحِيَّةِ الْمَحْنِيَّهْ.

وَلَا تَظُنَّ يَوْمًا، إِيَّاكَ أَنْ تَعْتَقِدَ أَنَّ هَذِهِ الْهَيْبَةَ جُزْءٌ مِنْ طَبِيعَتِكَ أَوْ صِفَةٌ فِيكَ مُنْذُ الْبَدَاءْ، إِنَّهَا لَيْسَتْ سِوَى فُرْصَةٍ عَابِرَةٍ، أَدَاةٍ مُمَوَّهَةٍ بِالْكَلِمَاتِ الْغَامِضَةِ الَّتِي اقْتَنَصْتَهَا مِمَّا أَخْبَرْتُكَ إِيَّاهُ، أَيُّهَا الْمُثِيرُ لِلشَّفَقَةِ وَالْأَمَانِي الْبَائِسَةِ..

فَإِذَا أَسَاءَ إِلَيْكَ أَحَدٌ مِنْهُمْ، فَلَا تَحْقِدْ وَلَا تَثُرْ بَيْنَ الْمَلَاءْ، فَقَطْ قُلْ فِي سِرِّكَ: "هُوَ يَسْتَحِقُّ الْمَوْتَ"، ثُمَّ تَقَدَّمْ إِلَيْهِ بِبُرُودٍ وَأَقْبِلْ جَبْهَةَ رَأْسِهِ بِتِلْكَ الْأُبُوَّةِ الْوَهْمِيَّهْ.

ثُمَّ امْشِ فِي طَرِيقِكَ مَرْفُوعَ الرَّأْسِ لِيَتَّبِعُوكَ مَسْحُورِينَ بَعْدَ هَذَا الْعَطَاءْ، فَذَلِكَ الَّذِي أَسَاءَ لَنْ يَبْقَى طَوِيلًا، وَلَنْ يَكُونَ عَائِقًا أَمَامَ مَسِيرَتِكَ الْكَوْنِيَّهْ، إِذْ لَنْ يَغْدُوَ فِي نِهَايَةِ الْأَمْرِ إِلَّا نُقْطَةً حَمْرَاءَ عَابِرَةً، تَذُوبُ وَتَتَلَاشَى فِي ذَلِكَ النَّهْرِ الَّذِي لَا يَعْرِفُ الِانْتِهَاءْ.

وَإِذَا جَاءُوا إِلَيْكَ وَقَالُوا إِنَّ ثَمَّةَ عَقَبَةً تَقْطَعُ هَذَا الطَّرِيقَ الرَّحِيبَ صَوْبَ الْعَلْيَاءْ، سَوَاءٌ أَكَانَتْ شَجَرَةً، أَمْ إِنْسَانًا، أَمْ مَجْمُوعَةً مِنَ الْبَشَرِ النَّائِمِينَ فِي سَكِينَةٍ هَانِئَةٍ وَأَحْلَامٍ نَقِيَّهْ.

فَلَا تَقُلْ لَهُمْ شَيْئًا يُثِيرُ الرِّيبَةَ، وَلَا تَأْمُرْهُمْ بِهَدْمٍ أَوْ إِقْصَاءْ، بَلْ أَطْلِقْ ضَحْكَةً صَامِتَةً وَقُلْ مَاسِحًا عَلَى نُفُوسِهِمْ: "أَهَؤُلَاءِ بَشَرٌ يَا قَوْمِي أَمْ أُمَمٌ مِنَ الْأَشْجَارِ الْمُنْسِيَّهْ؟"

ثُمَّ أَدِرْ نَحْوَهُمْ جِهَةَ وُجُوهِهِمْ وَقُلْ بِتَأَمُّلٍ يَمْلَأُ الرُّوحَ بِالذُّهُولِ وَالْإِغْوَاءْ: "إِنَّ الْعَقَبَةَ لَا تَعْنِي سِوَى أَنَّهَا عَقَبَةٌ، فَهَلْ أَشْعُرُ أَنَا بِالذَّنْبِ إِذَا تَجَاوَزْتُ عَقَبَاتِ الْحَيَاةِ الْعَادِيَّهْ؟"

وَتَابِعْ مَسِيرَكَ سَالِمًا، كَأَنَّكَ لَمْ تَزْرَعْ فِي النُّفُوسِ شَرَرًا وَلَا بَأْسَاءْ، أَعْطِ كُلَّ عَابِرٍ قُبْلَةً رَقِيقَةً فَوْقَ رَأْسِهِ، وَاهْمِسْ فِي أُذُنِهِ بِأَكَاذِيبَ طَيِّبَةٍ وَكَلِمَاتٍ سِحْرِيَّهْ.

هُنَا لِتَتَجَلَّى إِنْسَانِيَّتُكَ الْمُثِيرَةُ لِلِانْتِبَاهِ فِي عَصْرٍ يَجُوعُ لِلْعَطَاءِ وَالْإِخَاءِ وَالْحُبِّ بَيْنَ الْأَحْيَاءْ، ثُمَّ اكْمِلْ طَرِيقَكَ صَامِتًا..

مَرْفُوعَ الْهَامَةِ بِتِلْكَ الطُّمَأْنِينَةِ الْوَهْمِيَّهْ.

وَاتْرُكْ لِعَجَلَاتِ الْجَمَاهِيرِ الْهَادِرَةِ أَنْ تَتَوَلَّى الطَّحْنَ لِتُبِيدَ تِلْكَ الْعَقَبَةَ فِي خَفَاءْ، فَأَنْتَ إِنْسَانٌ عَلَى أَيَّةِ حَالٍ، فَلَا تَتَوَقَّفْ عَنِ السَّيْرِ، وَلَا تَسْتَسْلِمْ لِلْقُصُورِ وَالنَّظْرَةِ الدُّونِيَّهْ.

فَقَطْ أَبْكِ بِخُشُوعٍ، وَدَعِ الدُّمُوعَ تَجْرِي سَاخِنَةً لِأَجْلِ الْإِنْسَانِيَّةِ الرَّحِيبَةِ لَا لِأَجْلِ هَؤُلَاءِ الضُّعَفَاءْ، وَلْيَكُنْ هَدَفُكَ كُلُّهُ مُنْصَبًّا صَوْبَ مَصَالِحِكَ الذَّاتِيَّةِ الْعُلْيَا الَّتِي تَبْتَغِي لَهَا التَّلْبِيَّهْ

فَهُنَاكَ فِي نِهَايَةِ الْمَطَافِ سَيَتِمُّ تَصْفِيَةُ كُلِّ حِسَابٍ مِنْ أَجْلِ مَنَافِعِكَ الَّتِي لَا تَطَالُهَا السَّمَاءْ، حَيْثُ تُطْحَنُ الْجَمَاهِيرُ قُرْبَانًا لِذَاتِكَ الْمُقَدَّسَةِ، وَتَذُوبُ كُلُّ فِئَةٍ مِثْلَ زَبَدٍ عَابِرٍ لَا بَقَاءَ لَهُ فِي الْقُرُونِ الْآتِيَّة.

ابْكِ بِصِدْقٍ بَادٍ، وَابْتَسِمْ فِي خَفَاءِ نَفْسِكَ دُونَ رِيَاءْ، لِأَنَّكَ تَعْرِفُ مَصَالِحَكَ جَيِّدًا، وَهُنَا تَكْمُنُ الْغَايَةُ النِّهَائِيَّهْ؛ فَمَا كَانَ السَّلْبُ وَالطَّحْنُ بِأَمْرِكَ، بَلْ هِيَ طَبِيعَةُ الْأَنَانِيَّةِ الْمُعَاصِرَةِ، قُلْ لِنَفْسِكَ إِنَّكَ تَكَلَّمْتَ فَقَطْ، وَقُلْ لِإِلَهِكَ إِنَّكَ الْأَقْرَبُ إِلَيْهِ، فَهَكَذَا يَكُونُ الِانْقِيَادُ وَالتَّلْبِيَّهْ

قُلْ كُلَّ هَذَا لِنَفْسِكَ فِي عُزْلَتِكَ كَيْ تُخَفِّفَ عَنْ رُوحِكَ وَطْأَةَ الرَّحْمَةِ وَلَاعِجَ الْإِنْسَانِيَّةِ الْمَكْبُوتَةِ فِي الْأَحْشَاءْ، لَكِنْ إِيَّاكَ أَنْ تَبُوحَ بِهِ فِي وُجُوهِ الْجَمَاهِيرِ، بَلِ احْفَظْهُ سِرًّا لِتُجَابِهَ بِهِ كُلَّ مَنْ يَخْتَرِقُ وُجُودُهُ زَمَانَكَ، وَكُلَّ مَا سَيَأْتِي بِهِ الْغَدُ مِنَ النُّفُوسِ الْمُتَمَرِّدَةِ الْعَاصِيَّهْ

يا إِلَهِي، مَا هُوَ التَّبْرِيرُ الَّذِي يُنْقِذُ نَفْسِي، وَهَلْ أَسْتَطِيعُ وَحْدِي تَحَمُّلَ كُلِّ هَذِهِ الذُّنُوبِ وَالْجَرَائِمِ النَّكْرَاءْ، أَمَامَكَ أَنْتَ أَيُّهَا الْقَاضِي الْعَادِلُ فِي السَّمَاءِ الْعَلِيَّهْ؟

فَإِذَا جَاءَكَ الْجَوَابُ بِـ"نَعَمْ"، فَلَا تَبْتَسِمْ زَهْوًا وَلَا تُظْهِرِ الْاِسْتِعْلَاءْ، بَلْ عَلَيْكَ أَنْ تَحْتَفِظَ دَوْمًا بِجُرْعَةٍ مِنَ صُورَةِ الضَّحِيَّةِ الْمَغْلُوبَةِ عَلَى أَمْرِهَا، تِلْكَ النَّقِيَّهْ.

خَبِّئْهَا لِزَمَنٍ آتٍ، حِينَمَا يَتَدَاوَلُ هَؤُلَاءِ الْجَمَاهِيرُ قِصَّتَكَ بَيْنَهُمْ بِالْبَغْضَاءْ

وَيَصِفُونَ اسْمَكَ فِي حَكَايَاهُمْ بِأَنَّكَ أَشَدُّ الطُّغَاةِ عُتُوًّا، وَأَكْبَرُ الْمُجْرِمِينَ فِي التَّارِيخِ وَالْبَشَرِيَّهْ.

وَحِينَ يُوَجِّهُ إِلَيْكَ أَبْنَاءُ الْمُسْتَقْبَلِ سِهَامَ الْمَسَبَّاتِ، وَيَقْذِفُونَكَ بِالتُّهَمِ الثَّقِيلَةِ دُونَ عَطَاءْ، ارْفَعْ صُورَةَ الضَّحِيَّةِ خَارِقَةً عَبْرَ الْعُصُورِ لِتَصْعَقَ بِهَا عُقُولَهُمُ الْوَاهِيَّهْ.

اصْرُخْ فِي أَوْجَاهِهِمْ بِلِسَانِ الْقَدَرِ: "مَا ذَنْبِي أَنَا وَقَدْ كُنْتُ الْمُصْطَهَدَ بِقُوَّةٍ مِنَ الْإِلَهِ فِي الْعَلْيَاءْ؟ فَأَنَا النَّبِيُّ الْمُخْتَارُ الَّذِي حَمَلَ الرِّسَالَةَ، وَأَنَا الْمُحَرِّرُ الَّذِي جَاءَ لِأَجْلِ الْقِيَامَةِ السُّلْطَانِيَّهْ!

ما أَنْتَ إِلَّا قَتِيلُ مَلَامِحِكَ الَّتِي صَنَعَتْكَ، وَأَسِيرُ المَهَابَةِ الَّتِي خَذَلَتْكَ! لَقَدْ نَصَبُوكَ سَيِّدًا عَلَى عَرْشِ أَوْهَامِهِمْ..

فَخَرَسَ لِسَانُكَ أَمَامَ سُلْطَانِ صُورَتِكَ. يَرَوْنَ فِيكَ الجَلَالَ، وَمَا دَرَوْا أَنَّ جَلَالَكَ حِجَابٌ، وَأَنَّ صَمْتَكَ لَيْسَ صَوْمًا عَنِ الكَلَامِ، بَلْ هُوَ غَرَقٌ فِي الاسْتِسْلَامِ.

أَيُّهَا الإِنْسَانُ المَجْبُولُ عَلَى التَّنَاقُضِ: إِذَا كَانَتِ الخَدِيعَةُ قَدْ حَاصَرَتْكَ أَوَّلَ الأَمْرِ ضَحِيَّةً، فَلْتَجْعَلْ مِنْهَا آخِرَ الأَمْرِ مَطِيَّةً! خُذْ مِنْ هَذَا الوَهْمِ المُقَدَّسِ سِلَاحًا لِمَآرِبِكَ، وَادْفَعْ سِهَامَ دُنْيَاكَ بِمِجَنِّ هَيْبَتِكَ؛ فَمَا دَامَ العَالَمُ مَسْرَحًا لِلظِّلَالِ، فَكُنْ أَنْتَ لَاعِبَ الظِّلِّ الأَعْظَمَ، وَاحْكُمْ جَلَّادِيكَ بِالأُقْنُوعِ الَّذِي أَلْبَسُوكَ إِيَّاهُ

فَمَا أَنَا إِلَّا تِلْكَ الْمَرْأَةُ الَّتِي لَمْ يَكُنْ لِجَسَدِهَا سَيْطَرَةٌ عَلَيْهِ فِي وَقْتٍ عَصِيبٍ..

حِينَمَا كَانَتْ خَاضِعَةً بِالْكَلِمَاتِ وَالْأَفْعَالِ لِتِلْكَ الْقُوَّةِ الْغَامِضَةِ الْقَوِيَّةْ.

قُل: أَنَا الَّذِي أَرَادَتِ الْحُرِّيَّةُ بِهِ أَنْ تَكْسِرَ الْأَغْلَالَ

وَتُعْتِقَ مَنْ عَجِزَتِ الدُّهُورُ عَنْ جَعْلِهِ يَقْبَلُ الِانْعِتَاقَ أَوْ يَرُومُ الشِّفَاءْ، لِأَبْقَى وَحْدِي صَرْخَةَ الْخُلُودِ الَّتِي تَتَحَدَّى سُجُونَ الْبَشَرِ

وَتَعْبُرُ كَالشِّهَابِ فَوْقَ هَذِهِ الْكَائِنَاتِ الْفَانِيَّةْ.

هَنْدَسَةُ المَجَارِي

انْظُرْ إِلَيْهِمْ مِلْءَ عَيْنَيْكَ وَاضْحَكْ! هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَزْحَفُونَ فِي طِينِ دَوْرِ الضَّحِيَّةِ كَدِيدَانٍ تَعْشَقُ المَسْتَنْقَعَ.

إِنَّهُمْ عَاجِزُونَ حَتَّى عَنِ المَعْرِفَةِ؛ لَا يَمْلِكُونَ عُقُولاً لِيُمَيِّزُوا بِهَا هَلْ جُرِّدُوا مِنْ جُلُودِهِمْ بِالأَمْسِ، أَمْ أَنَّ النَّصْلَ يُسَنُّ لِأَعْنَاقِهِمُ الآنَ

لَا تَخْشَ غَضَبَهُمْ أَبداً، فَهُمْ لَا يَغْضَبُونَ كَالرِّجَالِ، بَلْ يَبْكُونَ كَالأَطْفَالِ، وَيَنْتَظِرُونَ مِنْكَ كِذْبَةً جَدِيدَةً تُنَاغِي عَبَثَهُمُ الدَّائِمَ

يَا لَبَلَاهَةِ الأَقْطَاعِ البَشَرِيَّةِ! تَجْلِدُهُمْ فَيَشْكُرُونَ السَّوْطَ، وَتُضَلِّلُهُمْ فَيَرْفَعُونَ التَّضْلِيلَ إِلَى مَرْتَبَةِ "الفَضِيلَةِ الكُبْرَى!

لَقَدْ تَدَنَّتْ غَرَائِزُهُمْ حَتَّى صَارُوا يَحْسَبُونَ شَرَّكَ المُطْلَقَ قُوَّةً طَاهِرَةً تَحْمِيهِمْ مِنَ المَجْهُولِ.

لَا تَكُنْ شِرِّيراً مَشْحُوناً بِالعُقَدِ لتَقُودَ غَرِيزَةَ القَطِيعِ فِي صَنَادِيقِ الِانْتِخَابِ، وَلَا تَرْتَدِ قِنَاعَ "العَادِلِ" لِتَسْتَجْدِيَ أَصْوَاتاً عَفِنَةً

مَا أَبْأَسَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَخْلَعُونَ أَرْقَى ثِيَابِهِمْ، وَيَتَمَظْهَرُونَ بِالفَقْرِ وَالنُّحُولِ لِيُبْهِرُوا الرَّعَاعَ! تِلْكَ الأَصْنَامُ الَّتِي غَزَلَتْ مِنْ عُرْيِهَا ثَوْباً نَافِقاً

لِلْقَدَاسَةِ —أُولَئِكَ الَّذِينَ مَشَوْا حُفَاةً كَالقَدِيسِينَ لِيَسْرِقُوا دَهْشَةَ البُسَطَاءِ— لَمْ يَكُونُوا سِوَى مُخَادِعِينَ صِغَارٍ يَسْتَجْدُونَ التَّصْفِيقَ.

لَا تَكُنْ "رَمْزاً" مِثْلَهُمْ، فَالرَّمْزُ عَبْدٌ لِمَنْ يَعْبُدُهُ

اِسْتَفِقْ مِنْ سُكْرِ المَظَاهِرِ: أَنْتَ لَسْتَ ضَحِيَّةً بَعْدُ، لَا لِشَعْبِكَ الأَبْلَهِ وَلَا لِعَدُوِّكَ المُتَرَبِّصِ! إِنَّكَ الآنَ —فِي مِيزَانِ الحَقِيقَةِ العَارِيَةِ— لَسْتَ شَيْئاً مَذْكُوراً.

لَمْ تَصْنَعْ مَجْدَكَ بَعْدُ؛ كُلُّ مَا فِي الأَمْرِ أَنَّ صُدْفَةً عَمْيَاءَ قَذَفَتْ بِكَ إِلَى السَّطْحِ، حِينَمَا تَحَرَّكَتْ تِيَّارَاتُ النَّهْرِ الهَادِرَةِ فِي أَعْمَاقِ الشُّعُوبِ، فَأَيْقَظَتْكَ مِنْ جُمُودِكَ.

لَقَدْ نَفَضَتِ الأَشْبَاحُ الغَابِرَةُ غُبَارَهَا عَنْكَ، لِيُرْتَسَمَ عَلَى مَلَامِحِكَ هَذَا الرِّدَاءُ الزَّائِفُ مِنَ الهَيْبَةِ. فَلَا تَغْتَرَّ بِظِلِّكَ

قِفْ حَيْثُ أَنْتَ، وَتَأَمَّلْ عَبَثَ تَاجِكَ! لَا تَكُنْ طَاغِيَةً بَغِيضاً تَرْتَعِدُ مِنْهُ المَفَاصِلُ إِذَا مَا سَادَتْ عَلَيْكَ الهَيْبَةُ وَصِرْتَ سَائِقَ هَذَا القَطِيعِ.

تَعَالَ، دَعْنِي أَهْمِسْ فِي أُذُنِكَ بِمَا غَابَ عَنْ بَصِيرَتِكَ المَعْصُوبَةِ سَأَكْشِفُ لَكَ عَوْرَةَ مَا تُرِيدُهُ أَنْتَ، وَمَا يَشْتَهِيهِ هَؤُلَاءِ الرَّعَاعُ. أَنْتَ تَحْسَبُ أَنَّكَ تَقُودُهُمْ بِفَرْطِ قُوَّتِكَ، فَيَا لَكَ مِنْ مَخْلُوقٍ مُثِيرٍ لِلشَّفَقَةِ وَالِازْدِرَاءِ! لَسْتَ سِوَى تَرَسٍ صَغِيرٍ فِي آلَةٍ أَعْظَمَ مِنْ أَوْهَامِ قَدَاسَتِكَ

هُنَاكَ فِي الظِّلِّ، يَقِفُ مُشَرِّحُو الخَوْفِ القَدِيمِ، أُولَئِكَ الفَلَاسِفَةُ الغَامِضُونَ الَّذِينَ نَبَشُوا جُذُورَ الوُجُودِ البَشَرِيِّ فَقَالُوا:

»لَيْسَتِ السِّيَاسَةُ مَنْ صَنَعَتِ المُلُوكَ، بَلِ الرُّعْبُ الأَوَّلُ

لَقَدْ كَانَ الإِنْسَانُ ذِئْباً لِأَخِيهِ الإِنْسَانِ فِي غَابَةٍ بِلَا جُدْرَانٍ، حَيْثُ الفَوْضَى تَنْهَشُ العِظَامَ، وَالِاضْطِرَابُ يَخْنُقُ الأَنْفَاسَ. وَمِنْ رَحِمِ هَذَا الجَحِيمِ البِدَائِيِّ، وُلِدَتِ الرَّغْبَةُ الكُبْرَى لِلشُّعُوبِ: لَيْسَتِ الحُرِّيَّةَ، بَلِ النَّجَاةَ

لَقَدْ تَنَازَلُوا عَنْ تِيجَانِهِمْ وَحُرِّيَّاتِهِمْ طَائِعِينَ، وَأَلْقَوْهَا عِنْدَ أَقْدَامِ المَارِدِ الجَدِيدِ، فَقَطْ لِيَشْتَرُوا لَيْلَةً وَاحِدَةً مِنَ الأَمَانِ

يَا لَغَفْلَةِ المُنَادِينَ بِالحُرِّيَّةِ فِي مَحَافِلِ الأَوْهَامِ! لَقَدْ أَثْبَتَ رَاصِدُو الأَعْمَاقِ أَنَّ الشُّعُوبَ تَعْشَقُ القَوَانِينَ الصَّارِمَةَ، حَتَّى وَإِنْ كَانَتْ جَائِرَةً

لِمَاذَا؟ لِأَنَّ القَانُونَ الجَائِرَ يَمْنَحُهُمْ خَرِيطَةً لِلتَّحَرُّكِ، أَمَّا الحُرِّيَّةُ المُطْلَقَةُ فَتَضَعُهُمْ أَمَامَ فَرَاغٍ مُخِيفٍ لَا تُطِيقُهُ غَرَائِزُهُمُ التَّطَوُّرِيَّةُ.

»إِذَنْ، مَا هُوَ الحَلُّ؟«

هَكَذَا تَسْأَلُنِي الآنَ بَعْدَ أَنْ كَشَفْتُ لَكَ لُعْبَةَ المَصَالِحِ المَحْبُوكَةَ!

فَدَعْنِي أُبَيِّنْ لَكَ فَوْقَ هَذَا البَلَاطِ العَارِي أَنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ حَلٌّ عَمَلِيٌّ بِمَفْهُومِ الطُّغَاةِ البُلَهَاءِ أَوْ المُصْلِحِينَ المَسَاكِينِ.

هَلْ تُرِيدُ خَلْقَ عَقِيدَةٍ جَدِيدَةٍ، وَسَكْبَ إِيمَانٍ حَدِيثٍ فِي عُرُوقِ الرَّعَاعِ، كَمَا فَعَلَ ذَلِكَ "صَانِعُ المِخْيَالِ الأَعْظَمِ" فِي غَابِرِ الأَزْمَانِ؟

هَلْ طُمُوحُكَ هُوَ أَنْ تُوَسِّعَ تَعَالِيمَ مَنْ صَنَعَ "المِخْيَالَ الأَكْبَرَ" بَعْدَمَا تَرَهَّلَ جَسَدُ مَذْهَبِهِ، وَصَارَ تِيَّارُ نَهْرِهِ ضَعِيفاً رَاكِداً، لَا يَقْوَى عَلَى جَرْفِ

إِنَّ مَنْ حَاوَلَ إِقْصَاءَكَ عَنْ مَرْتَبَةِ "الفَاعِلِ الأَوَّلِ" لَا يُدْرِكُ كُنْهَ التَّخْلِيقِ المَعْرِفِيّ شَيْئاً!

اِسْمَعْهَا حَقِيقَةً تُرْعِدُ خَلَايَا الكِبْرِيَاءِ: مَهْمَا تَعَدَّدَتْ مَنَافِعُكَ وَأَهْدَافُكَ، يَجِبُ أَنْ تَبْقَى فِي ذُرْوَةِ اليَقَظَةِ حِيَالَ الوِجْهَةِ الَّتِي تَقُودُ إِلَيْهَا مَجَارِيَ المِيَاهِ الطَّاغِيَةِ.

إِيَّاكَ أَنْ تَنْزَلِقَ إِلَى سُبَاتِ اللَّاوَعْيِ؛ فَإِذَا خَمَدَتْ فِيكَ جَذْوَةُ الِابْتِكَارِ البِكْرِ!، مَاتَتْ غَرِيزَةُ الخَلْقِ فِي صَدْرِكَ

كُفَّ عَنْ خَطِيئَةِ الِانْفِصَالِ عَنْ زَمَنِكَ! فَالَّذِي يَتَجَاهَلُ صَخَبَ عَصْرِهِ يَمُوتُ مَنْسِيّاً فِي العَرَاء.

اقْبِضْ عَلَى سَوَاعِقِ الأَثِيرِ، وَامْتَصَّ كُلَّ مُحَرِّضٍ صَوْتِيٍّ تَقْذِفُهُ حَنَاجِرُ هَذِهِ الحَدَاثَةِ لِتَصْنَعَ مِنْهُ فَيَالِقَ حَرْبِكَ. أَنْتَ الوَاقِفُ بِهَيْبَتِكَ البَاذِخَةِ عَلَى ضِفَافِ التِّيَّارِ، لَسْتَ هُنَا لِتُرَاقِبَ جَرَيَانَ المَاءِ، بَلْ لِتَغْرِسَ نَصْلَ الخَلْقِ فِي أُخْدُورَاتِ العَوَاطِفِ الأَزَلِيَّةِ الَّتِي شَقَّهَا مُوقِذُو الأَذْيَانِ وَمُهَنْدِسُو الفَلْسَفَةِ وَسَدَنَةُ الحِكْمَةِ القَدِيمَةِ

عَمِّقْ جِرَاحَ النَّهْرِ! احْفِرْ فِي جُوفِ السِّيَالَةِ البَشَرِيَّةِ مَسَارِبَ أَكْثَرَ غَوْراً، وَحَتَّى لَوْ أَصْبَحْتَ مُكَبَّلاً، تَرْتَجِفُ تَحْتَ رَحْمَةِ كَائِنٍ آخَرَ مِنَ العُمَالِقَةِ، كَائِنٍ يَنْتَصِبُ كَالسَّدِّ الصَّلْدِ لِيَحْبِسَ عَنْكَ الِارْتِوَاء؛ فَلَا تَنْحَنِ انْحِنَاءَ الأَذِلَّاء! بَلْ تَقَدَّمْ إِلَيْهِ كَنِدٍّ صَارِمٍ، حَاوِرْهُ وَفَاوِضْهُ بِمَكْرٍ يَفُوقُ دَهَاءَ الأَبَاطِرَةِ.

إِنَّكَ لَا تُفَجِّرُ مَجَارِيَ الخَوْفِ لِتَفِيضَ المِيَاهُ عَبَثاً فِي الأَوْدِيَةِ المَهْجُورَةِ، بَلْ لِتَسُوقَ حَشْرَجَةَ الحَشْدِ عُنْوَةً، حَتَّى تَغْرَقَ آخِرُ قَطْرَةٍ مِنَ الطُّوفَانِ عِنْدَ مَصَبِّ مَصَالِحِكَ العُلْيَا.. هُنَاكَ حَيْثُ تَلْتَقِي غَايَاتُكَ بِالأَبَدِيَّةِ الشَّمَّاء!

أَمَّا إِذَا كُنْتَ أَنْتَ "صَانِعَ البِدَايَاتِ البِكْرِ"؛ ذَلِكَ الحَالِمَ الَّذِي يَبْغِي اخْتِرَاقَ مَجْرًى لَمْ تَطَأْهُ قَدَمٌ، وَكَانَتْ مَصَالِحُكَ البَعِيدَةُ تَقَعُ خَارِجَ كُلِّ الأُحْفُورَاتِ القَدِيمَةِ لِلنَّهْرِ؛ فَإِيَّاكَ أَنْ تَقَعَ فِي الخَطِيئَةِ المُمِيتَةِ لِسَدَنَةِ الأَنْوَارِ المُسْتَعَارَةِ فِي أَمْصَارِ النُّسُكِ وَالِانْقِيَادِ

أُولَئِكَ الَّذِينَ ظَنُّوا نَطْحَ الجِبَالِ نَبَاهَةً، فَخَسِرُوا "الهَيْبَةَ الأُولَى"، وَمَا عَادَ فِي قُدْرَتِهِمْ أَنْ يَقُودُوا طِفْلاً، بَلْ إِنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ النُّفُوذَ حَتَّى لِانْقِيَادِ ذَوَاتِهِمُ المُمَزَّقَةِ فِي لَيْلِ الحَيْرَةِ الِارْتِيَابِيَّةِ

إِنَّ المُعْتَقَدَاتِ الرَّاسِخَةَ فِي غَيَابَاتِ الحَشْدِ لَيْسَتْ سِوَى طَبَقَاتٌ صَلْدَةٌ تَشَكَّلَتْ فِي رَحِمِ القُرُونِ بِبُطْءٍ شَدِيدٍ، حَتَّى إِذَا اسْتَقَرَّتْ فِي الوِجْدَانِ الجَمْعِيِّ

لَقَدْ تَمَزَّقَ أَبْنَاءُ الرَّمَادِ بَيْنَ العَالَمَيْنِ؛ فَلَا هُمْ مَكَثُوا عَلَى ضِفَافِ النَّهْرِ لِيُهَنْدِسُوا هَدِيرَهُ بِأَدَوَاتِهِ، وَلَا هُمْ نَجَوْا بِأَقْدَامِهِمْ فَوْقَ يَابِسَةٍ صَلْبَةٍ يَبْنُونَ عَلَيْهَا مَلَكُوتاً جَدِيداً.

إِنَّهُمْ يَقْبَعُونَ هُنَاكَ، مَنْبُوذِينَ فِي فَرَاءِ صَحْرَاءَ جَافَّةٍ بِلَا مَاءٍ وَلَا ظِلٍّ، يَمْضَغُونَ رَمَادَ الفَلْسَفَاتِ النَّائِيَةِ، وَيَصْرُخُونَ فِي عَدَمٍ لَا يَسْمَعُهُمْ

إِنَّ التَّخْلِيقَ الأَسْمَى لَا يَعْنِي أَنْ تَجِفَّ نَقَاوَةً فِي القِفَارِ، بَلْ أَنْ تَقِفَ كَالسَّاحِرِ المَهِيبِ عَلَى سَيَلَانِ الطُّوفَانِ، لِتَشُقَّ مَجْرَاكَ الجَدِيدَ مِنْ نَفْسِ المَدِّ النَّفْسِيِّ لِلْحَشْدِ، حَتَّى تَصِيرَ أَمْوَاجُ الغَرِيزَةِ كُلُّهَا طَوْعَ إِرَادَتِكَ الشَّمَّاءِ!

إِيَّاكَ أَنْ تَمُدَّ يَدَكَ إِلَى مَعَاوِلِ الحَفْرِ الظَّاهِرَةِ لِتَشُقَّ مَجْرَاكَ الجَدِيدَ، فَتِلْكَ شِيمَةُ الخُرَقَاءِ! بَلِ اسْتَعْمِلْ ذَاتَ اليَنَابِيعِ الرَّاكِدَةِ، وَدَعْ تِلْكَ المِيَاهَ المُتَدَفِّقَةَ نَفْسَهَا تَجْرِي لِصَالِحِكَ عَبْرَ الحُلُولِ وَالمُمَازَجَةِ؛ انْدَمِجْ فِي سَوَادِهِمْ، سَامِرْهُمْ فِي مَحَافِلِهِمْ، نَمْ عَلَى أَفْرِشَتِهِمُ الوَثِيرَةِ، وَاكْبَحْ جِمَاحَ خُيُولِهِمْ حِينَمَا يَرْكَبُونَ. تِلْكَ هِيَ مَدَارِسُ الخِبْرَةِ الَّتِي تَمْنَحُكَ هَيْبَةَ المُرْشِدِ وَتَحْشِدُ خَلْفَكَ القُلُوبَ الظَّامِئَةَ.

حَتَّى إِذَا حَانَتِ اللَّحْظَةُ المَوْعُودَةُ، وَانْكَشَفَ سِتْرُ الغَوَايَةِ؛ وَجِّهْ عَقَارِبَ جُنُونِهِمْ بَعْضَهُمْ نَحْوَ بَعْضٍ، دَعْهُمْ يَتَطَاحَنُونَ فَوْقَ طَاحُونَةِ الضَّغِينَةِ، وَيَسْفِكُونَ الدِّمَاءَ بِاسْمِ الأَوْثَانِ الَّتِي صَنَعُوهَا. وَحِينَمَا تَسِيلُ المِيَاهُ قَانِيَةً، امْشِ بِقَدَمَيْنِ ثَابِتَتَيْنِ فَوْقَ لُجَّةِ النَّزْفِ، لِيَرَى أَشَدُّ أَعْدَائِكَ لَمَعَانَ كِبْرِيَائِكَ، فَتَسْقُطَ الأَسْلِحَةُ مِنْ أَيْدِيهِمْ رُعْباً، وَيَلُوذَ آخَرُونَ بِفِرَارِ السِّنَّوْرِ الخَائِفِ خَلْفَ الأَجَمَةِ، لَاعِبِينَ دَوْرَ الضَّحِيَّةِ الكَلِيلَةِ.

أَمَّا مَنِ اسْتَسْلَمَ لِقَبْضَتِكَ، فَلَا تُعَاجِلْهُ بِالنَّصْلِ فَتَثْلِمَ هَيْبَتَكَ بِدِمَاءِ الأَذِلَّاءِ؛ بَلْ أَلْقِ نَحْوَهُمْ بِنَظْرَةٍ فَوْقِيَّةٍ بَارِدَةٍ، وَقُلْ لِلْحَشْدِ صَارِخاً:

«أَهَؤُلَاءِ أَشْجَارٌ نَابِتَةٌ فِي القِفَارِ أَمْ بَشَرٌ مِنَ الأَنَامِ؟ أَرَى لِي بِأَنَّهُمْ مَحْضُ خَشَبٍ مُسَنَّدَةٍ! هَلَّا دَقَّقْتُمُ النَّظَرَ؟». دَعْ ذَلِكَ الهَدِيرَ البَشَرِيَّ يَنْقَضُّ لِيَطْحَنَ بِأَضْرَاسِهِ آخِرَ البَقَايَا المُرْتَجِفَةِ مِمَّنْ مَا زَالُوا يُقَدِّسُونَ سَدَنَةَ النَّشْأَةِ الأُولَى، وَيَلْثُمُونَ أَعْتَابَ السُّلالَةِ الغَابِرَةِ، وَيَخْضَعُونَ لِغَيْبِ المَطَالِعِ القَدِيمَةِ!

اكْبَحْ لِسَانَكَ عَنْ اسْتِجْدَاءِ الرَّعَاعِ لِيَقْتَفُوا أَثَرَكَ، فَمَا أَنْتَ بِحَاجَةٍ إِلَى سَوَادِهِمْ فِي هَذِهِ الأَرْجَاء! إِنَّهُمْ سُلَالَةُ مَنْ دَحَرَتْ سَطْوَتُكَ غُرُوشَهُمْ، وَأَعْرَاقٌ كَهَذِهِ لَا عَهْدَ لَهَا عِنْدَ الِارْتِقَاء. لَكِنْ، حَذَارِ أَنْ يَلْمَحُوا فِي جِلْدِكَ رِعْشَةً، أَوْ تَقْرَأَ عُيُونُهُمْ فِي مَلَامِحِكَ رِيبَةَ الِاتِّقَاء! بَلْ تَقَدَّمْ كَالقَضَاءِ المَحْتُومِ، وَاطْعَمْ مِنَ الزَّادِ الَّذِي عَجَنَهُ لَكَ أَشَدُّ الحَاقِدِينَ غِلّاً؛ فَإِنَّ نُكُوصَكَ خَطْوَةً وَاحِدَةً هُوَ مَصْرَعُ الجَلَالِ، وَبِهِ يَتَمَزَّقُ عَنْ كَاهِلِكَ وِشَاحُ الأُبَّهَةِ، لِتَبْدُوَ ذَاتُكَ العَارِيَةُ مُثِيرَةً لِلرَّأْفَةِ وَالِازْدِرَاء .

إِنَّ مَدَاكَ يَشْتَعِلُ الآنَ لِيُصَافِحَ مَشَارِقَ مَهْيَبَةً، وَتَفْتَحَ بِعَزْمِكَ المَحْضِ آفَاقاً بِكْراً لَمْ تَرْتَدَّ إِلَيْهَا بَصِيرَةٌ، فَهَا هِيَ المِيَاهُ الطَّاغِيَةُ تَنْقَادُ بِإِشَارَتِكَ صَوْبَ أَقَاصِي الأَرْضِ الدَّهْمَاء. أَيْنَ المُنْتَهَى؟ لَا تَكْبَحِ الجِمَاحَ وَلَا تَعْرِفِ الِانْطِفَاء! فَلَوْ أَنَّنِي حَدَدْتُ لِمَصَالِحِي غَايَةً، لَمَا قَنِعْتُ بِدُونِ السِّيَادَةِ فَوْقَ هَامِ الجَوْزَاء.

كُنْ بَارّاً بِالعُهُودِ، لَكِنْ صُنْ وَعْدَكَ لِنَفْسِكَ العُلْيَا وَحْدَهَا، لَا لِهَذَا الطَّغَامِ المَسُوقِ، وَلَا لِتِلْكَ الرِّمَامِ الَّتِي نَحَتَهَا الوَهْمُ فِي العُصُورِ الخَالِيَةِ.. هَذَا إِنْ كَانَ لِتِلْكَ الآلِهَةِ بَأْسٌ يُرْهَبُ فِي مَلَكُوتِكَ وَسَلْطَنَتِكَ الشَّمَّاء

مَا إِنْ تَبْلُغَ مُبْتَغَاكَ الأَسْمَى، وَتَطَأَ قَدَمُكَ عَرْشَ غَايَتِكَ القَصِيَّةِ، فَاعْلَمْ أَيُّهَا المُلْتَاعُ المُثِيرُ لِلشَّفَقَةِ، يَا مَنْ تَمَزَّقَتْ أَحْشَاؤُهُ تَعَطُّشاً لِلِابْتِدَاعِ؛ أَنَّكَ لَنْ تَصِلَ إِلَى تِلْكَ المَصَالِحِ إِلَّا فَرِيداً وَحِيداً، وَأَنَّ مَجْدَكَ القَادِمَ لَيْسَ سِوَى ضَرِيحِكَ المَهْجُورِ فِي العَلْيَاء!

وَفِي غَابِرِ الأَزْمَانِ، حِينَمَا تَتَعَاقَبُ الفُصُولُ وَتَتَوَالَى الدُّهُورُ بَيْنَ خَرِيفٍ يَذْوِي وَرَبِيعٍ يَرْتَمِي، سَيَنْتَفِضُ النَّهْرُ القَدِيمُ غَضَباً، وَيَقْذِفُ بِمِيَاهِهِ الفَائِضَةِ عَنْ جَدِّهَا صَوْبَ مَجْرَاكَ الَّذِي شَقَقْتَهُ بِعَزْمِكَ، لِتَنْبُتَ حَوْلَ رُفَاتِكَ حَدِيقَةٌ غَنَّاء، وَتَزْهَرَ القِفَارُ بِالأَلْوَانِ وَالأَنْدَاء.

فَالآنَ، دَعْ عَنْكَ النَّهْرَ وَغَثَاءَهُ، وَلَا تَلْتَفِتْ إِلَّا إِلَى مَسَارِكَ الخَاصِّ وَرَوْضَتِكَ النَّاضِرَةِ؛ مُتْ كَمَا يَمُوتُ الجَبَابِرَةُ، وَكُنْ إِلَهاً يَتَرَفَّعُ عَنْ دَنَايَا هَذَا الوُجُودِ الرَّخِيصِ، بَيْنَمَا تَصْرُخُ هَيْبَتُكَ الخَالِدَةُ مِنْ أَعْمَاقِ الشُّقُوقِ السَّحِيقَةِ عِنْدَ المَصَبِّ، لِيَدْوِيَ صَدَاهَا فِي مَسَامِعِ الدَّهْرِ بِبَلَاء!

آهِ مِنْ تَعَبِ المَسِيرِ وَبُحَّةِ الصَّوْتِ فِي هَذِهِ الأَرْجَاء! قَدْ يَظُنُّ الخِلْوُ أَنَّ الأَمْرَ هَيِّنٌ، وَمَا هُوَ إِلَّا مُغَامَرَةٌ لَافِحَةٌ، قَدْ تَثْوِي فِيهَا صَرِيعاً أَوْ تَحْيَا عَبْرَهَا بِقَدْرِ مَا فِيكَ مِنْ جَسَارَةٍ عَلَى النُّهُوضِ مِنْ بَيْنِ تَيَّارَاتِ النَّهْرِ العَاتِيَةِ.

إِنَّهَا حَتْمِيَّةُ الظُّرُوفِ النَّفْسِيَّةِ الَّتِي تَفْرِزُ البَشَرَ؛ فَمِنْهُمْ فِئَةٌ رَعْدِيدَةٌ تَتَشَبَّثُ بِأَحْجَارِ القَاعِ خَوْفاً، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقِفُ عَلَى قَدَمَيْهِ أَبِيّاً، لِتَتَصَاغَرَ بَعْدَ ذَلِكَ كُلُّ الِاحْتِمَالَاتِ أَمَامَ سَعِيرِ الشَّغَفِ.. ذَلِكَ الشَّغَفِ الَّذِي يَصْنَعُ مِنْكَ إِلَهاً يَمُوتُ فِي مَسَارٍ شَقَّهُ بِنَفْسِهِ، بَعِيداً، مُتَحَمِّساً، وَهُوَ يَهْدِمُ الحُفَرَ القَدِيمَةَ لِيَبْنِيَ مَجْدَهُ المَعْزُولَ عَنِ الضَّوْضَاء.

هُنَا تَكْمُنُ الغُصَّةُ الكُبْرَى! فَلَا يَبْلُغُ هَذِهِ المرْتَبَةَ إِلَّا مَنْ قَدَّمَ قَرَابِينَ مِنْ سَعَادَتِهِ، وَأَهْرَاقَ طُمَأْنِينَتَهُ، وَهَجَرَ هُدُوءَهُ، مُتَخَلِّياً عَنِ المُجْتَمَعِ الزَّكِيكِ، لِيَعْتَكِفَ فِي خَلْوَتِهِ رَاقِصاً مَعَ ذَاتِهِ تَعَالِياً عَنِ الضُّعَفَاء .

وَحِينَمَا يَرْمُقُهُ النَّاسُ مِنْ بَعِيدٍ، يَقُولُونَ فِي أَوْهَامِهِمْ: «هَذَا جِلْمُودٌ لَنْ يَخْتَلِطَ بِنَا أَبَداً!»، لَكِنَّ العَمَى قَدْ أَصَابَهُمْ؛ فَأَنْتَ لَا تَعْتَزِلُ هَرَباً، بَلْ تَعْتَزِلُ اسْتِعْدَاداً لِلِاقْتِحَامِ وَالفِدَاء!

إِيَّاكَ أَنْ تَكُونَ مُنْفَرِداً يَعُودُ إِلَى القَطِيعِ لِأَنَّهُ جَبُنَ عَنِ الوَحْدَةِ؛ بَلِ ادْرُسْ هَؤُلَاءِ البَشَرَ، وَتَفَهَّمْ طَبِيعَتَهُمُ الحَيَوَانِيَّةَ الغَرِيزِيَّةَ، ثُمَّ اعْتَلِ خَشَبَةَ المَسْرَحِ لِتَقُودَهُمْ وَتَتَلَاعَبَ بِأَهْوَائِهِمْ، بَحْثاً عَنِ الأُلُوهِيَّةِ المُطْلَقَةِ، لَا عَنِ المَجْدِ الزَّائِفِ أَوْ عُهُودِ الأَنْبِيَاءِ.. فَأُولَئِكَ فِي زَمَنٍ غَابِرٍ لَمْ يَكُونُوا سِوَى بَشَرٍ خَرَجُوا مِنْ نُقْطَةٍ بَدَائِيَّةٍ فِي رَحِمِ النُّشُوءِ وَالِارْتِقَاء، أَمَّا أَنْتَ فَتُرِيدُ صِيَاغَةَ النِّهَايَةِ الشَّمَّاء!

خَديعَةُ العُزْلَةُ النَّقِيَّةُ وَمَكْمَنُ القَفْزَةِ الخَطِيرَةِ

مَنْ هَذَا الَّذِي يَرْتَدِيهِ اللَّيْلُ وَيَلْتَحِفُهُ الأُفُقُ؟

إِنَّهُ الغَرِيبُ الَّذِي لَمْ يَجِدْ فِي صَخَبِ الحَوَاضِرِ مَكَاناً لِقَلْبِهِ.

لَقَدْ أَبْصَرَ فِي طُفُولَتِهِ سِرَّ النَّقَاءِ المَنْسِيّ، فَعَرَفَ أَنَّ صِدْقَ الحَيَاةِ لَا يُولَدُ فِي الأَسْوَاقِ المُكْتَظَّةِ، بَلْ فِي المَسَاحَاتِ الَّتِي هَجَرَهَا البَشَرُ

لِوَحْشُ السَّاكِنُ فِي عُمْقِ الجَمَاعَةِ ذَكِيٌّ لِلْغَايَةِ؛ إِنَّهُ لَا يَكْسِرُ الأَجْنِحَةَ، بَلْ يَصْنَعُ لَهَا أَقْفَاصاً مِنَ الذَّهَبِ وَالرَّفَاهِيَةِ

يَجْعَلُ التَّمَرُّدَ مَاضِياً عَابِراً، وَمَوْجَةً تَرْتَدُّ إِلَى الشَّاطِئِ دُونَ أَنْ تُحَرِّكَ قَاعَ البَحْرِ.

لِذَلِكَ لَا يَنْجُو مِنْ هَذَا الِابْتِلَاعِ إِلَّا ذَاكَ الغَرِيبُ الَّذِي لَا يَمْلِكُ شَيْئاً لِيَبِيعَهُ، وَلَا يَسْمَعُ غَيْرَ نِدَاءِ العُزْلَةِ

أَيُّهَا الغَرِيبُ، لَا تَبْكِ عَلَى صَمْتِهِمْ، بَلْ صُنْ لآلِئَكَ مِنَ الِابْتِلَاعِ.

المَدِينَةُ لَا تُرِيدُ مَنْ يُنْقِذُهَا، بَلْ تُرِيدُ مَنْ يُشْبِهُهَا وَيُعِيدُ إِنْتَاجَ خُمُولِهَا

دَعِ الحُشُودَ لِصَخَبِهَا الزَّائِلِ، وَالْتَفِتْ إِلَى جَبَلِكَ؛ فَأَنْ تَكُونَ فِكْرَةً نَاصِعَةً فِي الخَوَاءِ، أَجْمَلُ بِكَثِيرٍ مِنْ أَنْ تَكُونَ صَرْخَةً مُدَجَّنَةً فِي زَوَايَا النِّسْيَانِ

يَقُولُونَ عَنْهُ فِي المَدَائِنِ: إِنَّهُ ضَائِعٌ فِي الغَابَاتِ، يَلْتَحِفُ جُلُود الذِّئَابِ، وَيَقْتَاتُ عَلَى طَرَائِدِ البَرِّيَّةِ
يَظُنُّ العَابِرُونَ أَنَّهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ لِيَكُونَ فَرِيداً فِي عَيْنِ نَفْسِهِ، أَوْ لِيَصْنَعَ أُسْطُورَةً مِنْ أَوْهَامٍ
لَكِنَّ الحَقِيقَةَ أَكْثَرُ غُمُوضاً وَأَبْعَدُ غَوْراً مِنْ ظُنُونِهِمْ البَلِيدَةِ

❖

هَلُمُّوا بِنَا نَهْجُرُ صَخَبَ الأَسْوَارِ، وَنَغُوصُ فِي أَحْشَاءِ تِلْكَ الغَابَةِ السَّحِيقَةِ؛ لَيْسَ لِنَتَفَرَّجَ عَلَى عُزْلَتِهِ، بَلْ لِنَفُكَّ شِفْرَةَ الوُجُودِ الأَوَّلِ

دَعُونَا نَخْتَرِقُ مَعَاقِلَ الصَّمْتِ الشَّجَرِيِّ، لِنَقْتَرِبَ مِنْ هَذَا الكَائِنِ الَّذِي خَلَعَ عَنْ نَفْسِهِ ثِيَابَ التَّزْوِيرِ البَشَرِيِّ، وَلَبِسَ قَسْوَةَ الطَّبِيعَةِ

أُرِيدُ أَنْ أَنْظُرَ فِي عَيْنَيْهِ، أَنْ أَنْفُذَ إِلَى مَا يَجُولُ فِي أَغْوَارِهِ المَهِيبَةِ
مَا الَّذِي يَرَاهُ حِينَمَا يَصْمُتُ الكَوْنُ؟ وَأَيُّ سِرٍّ يَقْرَؤُهُ فِي عُيُونِ الذِّئَابِ الَّتِي يَرْتَدِي سِتْرَهَا؟
هُنَاكَ، فِي عُمْقِ غِيَابِهِ، سَنَعْرِفُ أَنَّ مَا نَسْمِيهِ نَحْنُ 'ضَيَاعاً'، هُوَ لَدَيْهِ بِدَايَةُ الِاهْتِدَاءِ لِلْجَوْهَرِ النَّقِيِّ

❖

حَلَّقْتُ بَعِيداً، أَمْتَطِي رِيَاحَ السَّمَاءِ بَاحِثاً عَنْهُ، حَتَّى أَبْصَرْتُهُ جَالِساً فِي سَكِينَةٍ تَحْتَ ظِلِّ شَجَرَةٍ عَتِيقَةٍ
هَبَطْتُ نَحْوَهُ، وَانْقَضَضْتُ كَهَيْئَةِ نَسْرٍ مَهِيبٍ يَضُمُّ أَجْنِحَتَهُ عِنْدَ جِذْعِ الأَرْضِ
مَدَّ يَدَهُ بِرِفْقٍ وَبَدَأَ يُدَاعِبُ رَأْسِي، ظَانّاً أَنَّهُ يَسْتَأْنِسُ كَائِناً مِنْ كَائِنَاتِ البَرِّيَّةِ الَّتِي لَا تَنْطِقُ؟

وَلَكِنْ، حِينَمَا نَبَسْتُ بِالكَلِمَاتِ وَتَفَوَّهْتُ بِالصَّوْتِ البَشَرِيِّ، لَمْ يَهْتَزَّ لَهُ رِمْشٌ، فَكَانَتْ المَفَاجَأَةُ لِي أَنَا لَا لَهُ

نَظَرَ فِي عَيْنَيَّ الصَّقْرِيَّتَيْنِ وَقَالَ بِنَبْرَةٍ رَاسِخَةٍ: 'هَذَا مَا تَوَقَّعْتُهُ تَمَاماً سَأَلْتُهُ، وَالدَّهْشَةُ تَعْصِفُ بِأَجْنِحَتِي: 'وَمَا الَّذِي تَوَقَّعْتَهُ بِالضَّبْطِ أَيُّهَا السَّاكِنُ فِي الخَوَاءِ

أَطْلَقَ ضَحْكَةً هَادِئَةً تُشْبِهُ هَبُوبَ الرِّيحِ بَيْنَ الأَغْصَانِ، وَقَالَ: 'تَوَقَّعْتُ أَنَّكَ سَتَفْهَمُنِي.. فَمَنْ يَأْتِي مِنْ أَعَالِي السَّمَاءِ، لَا يَرَى العَالَمَ بِعُيُونِ أَهْلِ الأَرْضِ

هُنَاكَ، فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ الخَاطِفَةِ، انْقَشَعَ الضَّبَابُ عَنْ خَفِيَّةٍ مِنْ خَفَايَاهُ السَّحِيقَةِ؛ لَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّ عُزْلَتَهُ لَمْ تَكُنْ عَمًى عَنِ البَشَرِ، بَلْ كَانَتْ انْتِظَاراً لِمَنْ يُحَلِّقُونَ فَوْقَ أَسْوَارِ المَدِينَةِ

ثُمَّ قُلْتُ: أَيُّهَا الغَرِيبُ المُنْكَفِئُ عَلَى رَفَاتِ انْفِرَادِهِ: مَا عُزْلَتُكَ هَذِهِ إِلَّا جُمُودٌ، وَمَا أَنْتَ فِيهَا إِلَّا ذِئْبٌ بَرِّيٌّ يَعْوِي فِي النِّسْيَانِ دُونَ أَثَرٍ أَيُّ فَرْقٍ بَيْنَكَ وَبَيْنَ هَذَا الصَّخْرِ المُرْتَمِي تَحْتَ قَدَمَيْكَ؟ كِلَاكُمَا سَوَاءٌ؛ مَحْضُ صَمْتٍ عَقِيمٍ، وَعَدَمٍ صَغِيرٍ لَا وَزْنَ لَهُ، أَمَامَ هَذَا المَارِدِ الصَّاخِبِ الَّذِي يَدُورُ خَارِجَ جُحْرِكَ.. وَنَدْعُوهُ نَحْنُ: الحَيَاةَ

سَادَ الصَّمْتُ لِبُرْهَةٍ، وَفِي عَيْنَيْهِ لَمَعَتْ دُمُوعٌ كَقَطَرَاتِ اللُّؤْلُؤِ، تَعْكِسُ بَرِيقَ سَمَاءٍ بَدَأَتْ تَمْخَضُ بِالعَاصِفَةِ

بَكَى حُزْناً، وَقَالَ بِنَبْرَةٍ خَائِفَةٍ: 'لَقَدْ نَفَيْتُ نَفْسِي إِلَى الأَقَاصِي بَحْثاً عَنِ الفَضِيلَةِ المَفْقُودَةِ؛ ظَنَنْتُ أَنَّ العُزْلَةَ رَحِمٌ إِنْسَانِيٌّ لَطِيفٌ، وَأَنَّنِي تَطَهَّرْتُ مِنْ أَوْضَارِ الغَرَائِزِ الَّتِي تَعِجُّ بِهَا تِلْكَ القُطْعَانُ البَشَرِيَّةُ'

كِنَّنِي فِي الحَقِيقَةِ، يَا نَسْرِي، مَا زِلْتُ مُقَيَّداً بِهِمْ
مَا هَرَبْتُ كُرْهاً لَهُمْ، بَلْ فِرَاراً مِنْ عَجْزِي عَنْ قِيَادَتِهِمْ؛ إِنَّنِي مَا زِلْتُ أَرْغَبُ، فِي أَعْمَاقِ مَكْمَنِي، أَنْ أَسْطُوَ عَلَى مَصَائِرِهِمْ، وَأَنْ أَمْتَلِكَ نَاصِيَةَ السِّيْطَرَةِ عَلَيْهِمْ

فَقُلْتُ لَهُ وَمِشْرَطُ الحَقِيقَةِ فِي نَبْرَتِي: 'لَقَدْ رَأَيْتُ الخَدِيعَةَ فِي أَعْمَاقِكَ أَيُّهَا الغَرِيبُ

أَنْتَ لَمْ تَعْشَقْ جِوَارَ البَهَائِمِ فِي هَذِهِ القِفَارِ إِلَّا لِأَنَّكَ مَا زِلْتَ تَتَوَهَّمُ أَنَّكَ أَفْضَلُ الفُضَلَاءِ، وَتَظُنُّ فِي عُزْلَتِكَ أَنَّكَ المِثَالُ المُنْتَخَبُ، أَوْ أَنَّ هُنَاكَ عَيْناً غَيْبِيَّةً تَرْقُبُكَ مِنْ بَعِيدٍ فِي أَبْعَادِ الحَيَاةِ لِتَمْنَحَ انْكِفَاءَكَ هَيْبَةً يَعْمَى عَنْهَا البَشَرُ

فَمَشْهَدُ الطَّبِيعَةِ لَنْ يَمْنَحَكَ هَيْبَةً مِنَ الخَلَاءِ؛ إِنَّهَا الطَّبِيعَةُ فَحَسْبُ!

فَهَلْ تَبْغِي أَنْ تَكُونَ كَائِناً طَبِيعِيّاً بَسِيطاً، أَمْ أَنَّكَ تُرِيدُ، فِي الوَقْتِ عَيْنِهِ، أَنْ تَكُونَ مُتَمَيِّزاً فَوْقَهَا؟

هُنَا تَكْمُنُ مُعْضِلَةُ فَضِيلَتِكَ العَقِيمَةِ؛ إِذْ تَحْسَبُ نَفْسَكَ حُرّاً، بَيْنَمَا أَنْتَ لَمْ تَقْطَعْ قُيُودَ الغَرَائِزِ، وَلَا أَغْلَالَ الرَّغْبَةِ فِي السِّيَادَةِ

فَقَالَ، وَقَدِ اشْتَبَكَ فِي مَلَامِحِهِ خَجَلُ المَهْزُومِ بِـ(نَامُوسِ العُزْلَةِ الغَابِرِ):

بَلِ الحَقُّ يَا نَسْرِي. أَنَّنِي مَا اعْتَزَلْتُ المَدَائِنَ إِلَّا لِأَنَّنِي أُرِيدُ النَّافِذَةَ الأُولَى لِلتَّحَكُّمِ

لَكِنَّهُ ارْتِعَادُ المُرَاقِبِ مِنْ جَهَنَّمِ السَّطْوَةِ نَفْسِهَا، هُوَ مَا دَفَعَنِي لِأَنْ أَلُوذَ بِهَذِهِ المَتَاهَاتِ الصَّامِتَةِ'.

هَرَبْتُ إِلَى سِتْرِ هَذِهِ المَجَاهِلِ حِينَمَا أَعْجَزَنِي صَخَبُ الأَقْنِعَةِ، وَتَوَهَّمْتُ أَنَّ الحَقِيقَةَ النَّاقِيَةَ قَدْ صَارَتْ طَوْعَ بَنَانِي هُنَا؛ فِي مُدَاعَبَةِ الرِّمَامِ البَرِّيَّةِ وَمُسَامَرَةِ الضَّوَارِي النَّابِطَةِ فِي القِفَارِ

لَقَدْ أَقَمْتُ لِنَفْسِي هَيْكَلاً بَدِيلاً مِنْ أَرْوَاحٍ دَاجِنَةٍ، كَيْ أُعِيدَ رَسْمَ سُلْطَانِي الَّذِي خَنَقَتْهُ الأَسْوَارُ، ظَانّاً أَنَّ حِرَاسَةَ الظِّلِّ هِيَ صَفْوُ الوُجُودِ

۞

لَقَّى كَلَامِي كَمَنْ يَشْرَبُ التَّجَلِّيَ بَعْدَ ظَمَأٍ سَحِيقٍ، فَهَدَأَتْ رَعْشَةُ جَوَانِحِهِ الَّتِي كَانَتْ تَمْخَضُ بِالعَاصِفَةِ.

لَمْ يَعُدْ ذَلِكَ الشَّرِيدَ المَذْعُورَ مِنْ ظِلِّ نَفْسِهِ، بَلْ بَدَا كَمَنْ أَدْرَكَ نَامُوسَ المَسِيرِ؛ إِذْ رَأَى فِينَا رُوحاً وَاحِدَةً تَتَمَوَّجُ بَيْنَ خَفْقَةِ الجَنَاحِ وَسِرِّ الأُنُوثَةِ الهَارِبِ مِنْ خَيَالِ المَلَائِكَةِ.

قُلْتُ لَهُ وَمَرَايَا البَصِيرَةِ تَتَّسِعُ بَيْنَنَا: 'خُذْ هَذِهِ العُزْلَةَ غَنِيمَةً لَا مَهْرَباً، وَاجْعَلْ مِنْ سُكْنَاكَ بَيْنَ هَذِهِ الضَّوَارِي الدَّاجِنَةِ مِعْرَاجاً لِفَهْمِ النَّفْسِ، لَا جُحْراً لِخَوْفِ المَجْهُولِ.

مَنْ عَرَفَ مَصْلَحَتَهُ الكَوْنِيَّةَ، صَارَتْ خَطَوَاتُهُ شَرِيعَةً، وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ مَحْبُوباً فِي مَلَكُوتِ الأَرْضِ، بَدَأَ بِتَرْوِيضِ الصَّخْرِ قَبْلَ أَنْ يَقُودَ الحُشُودَ

قُلْتُ لَهُ، وَالفَجْرُ يَنْفَثُ فِيهِ مِنْ رُوحِ اليَقِينِ: 'خُذْ خَطْوَتَكَ العُلْيَا، فَمَا كَانَتِ العُزْلَةُ مَقَراً لِلصِّدِّيقِينَ إِلَّا لِتَكُونَ مِعْرَاجاً لِلْعَوْدَةِ إِلَى مَيْدَانِ الإِنْسَانِ.

فَقَطْ لَا تَنْتَظِرْ أَنْ تَهْبِطَ الهَيْبَةُ مِنَ السَّمَاءِ لِتَتْلُوَ عَلَيْكَ نُبُوءَةً أَوْ آيَاتٍ فِي عَتَمَةِ الكَهْفِ!

اقْذِفْ بِأَوْثَانِ الِانْطِوَاءِ، وَلَا تَجْعَلْ مِنْ غَايَاتِكَ طَرَائِدَ دَاجِنَةً، بَلْ سِيَادَةً مَشْحُونَةً بِالمَحَبَّةِ؛ فَإِنَّ مَنْ رَامَ المَجْدَ الكَوْنِيَّ، لَا يُقَيِّدُ نَاصِيَتَهُ بِجُدْرَانِ المَخَابِئِ، بَلْ يَسِيرُ صَوْبَ الأَنَامِ رَافِعاً رَايَةَ وُجُودِهِ

فِي زَيْفِ النَّحْتِ السَّهْلِ وَعَمَى الحُشُودِ

فِي غَوَابِرِ الأَزْمَانِ، تَحْتَ سَمَاءِةالمَعْمُورَةِ الصَّاخِبَةِ بِالفِتْنَةِ المُرَقَّشَةِ المَجْرُوحِ، نَبَتَتْ طَغْمَةٌ مِنَ المَشَّائِينَ يُدْعَوْنَ 'أَبْنَاءَ المَجَازِ الزَّائِفِ

كَانُوا يَنْفُثُونَ فِي أَسْمَاعِ الدَّهْمَاءِ أَنَّ الأَخْلَاقَ لَيْسَتْ إِلَّا رِدَاءً يَصْنَعُهُ القَوِيُّ لِيَسْتُرَ بِهِ أَنْيَابَهُ، وَأَنَّ نَامُوسَ الحَقِّ لَا يَدُورُ فِي فَلَكِ السَّمَاوَاتِ، بَلْ يَنْقَادُ طَوْعاً لِمَا تَتَّفِقُ عَلَيْهِ صَرَخَاتُ الأَغْلَبِيَّةِ فِي سَاحَاتِ المَدِينَةِ الصَّاخِبَةِ!

لَقَدْ حَوَّلُوا المِعْيَارَ الأَزَلِيَّ إِلَى صَنَمٍ مِنْ طِينٍ، تَعْبُدُهُ الحُشُودُ كُلَّمَا سَاقَهَا عَرَابُوهَا نَحْوَ مَذْبَحِ الأَوْهَامِ.

وَسَطَ هَذَا السَّدِيمِ المُظْلِمِ، وَقَفَ (جَلِيسُ الحِكْمَةِ العَارِي) كَالطَّوْدِ العَظِيمِ فِي وَجْهِ أَعَاصِيرِهِمْ، لَمْ تُثْنِهِ بَهْرَجَةُ بَيَانِهِمْ وَلَا صَخَبُ دَهْمَائِهِمْ.

كَانَ يُفَكِّكُ أَوْهَامَهُمْ بِأَنَامِلَ مِنْ يَقِينٍ، مُثْبِتاً أَنَّ 'الخَيْرَ' وَ'العَدَالَةَ' لَيْسَا دُمْيَتَيْنِ تُرَاقِصُهُمَا أَهْوَاءُ الحُشُودِ كُلَّمَا انْسَاقَتْ خَلْفَ غَاوٍ مَاهِرٍ يَبِيعُهَا الزَّيْفَ فِي قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ!

كَانَ يَرَى نَامُوسَ الحَقِّ كَوْناً مَسْقُوفاً بِالأَبَدِيَّةِ، لَا يَتَمَطَّى لِيُنَاسِبَ مَقَاسَاتِ الضَّجِيجِ البَشَرِيِّ العَابِرِ.

وَعِنْدَمَا احْتَشَدَتْ تِلْكَ المَحْكَمَةُ الرَّعَاعِيَّةُ المَخْدُوعَةُ بِأَمْرَاضِهَا، ظَانَّةً أَنَّهَا تَمْلِكُ مَقَادِيرَ السَّمَاءِ، نَظَرَ إِلَيْهِمْ بِاحْتِقَارٍ صَامِتٍ يَلِيقُ بِأَنْبِيَاءِ الحَقِيقَةِ.

رَفَضَ أَنْ يَبِيعَ جَوْهَرَهُ لِقُضَاةٍ عُمْيٍ يَحْكُمُونَ بِأَهْوَاءِ القَطِيعِ، فَتَجَرَّعَ كَأْسَ المَنُونِ (السُّمَّ المُرَّ) بِيَدٍ ثَابِتَةٍ لَا تَعْرِفُ الِارْتِجَافَ!

لَقَدْ ظَنُّوا بِغَبَائِهِمْ أَنَّهُمْ دَفَنُوا صَوْتَهُ، وَمَا عَلِمَ الطُّغَاةُ الصِّغَارُ أَنَّهُمْ سَكَبُوا دَمَهُ شَرِيعَةً خَالِدَةً، وَأَنَّ رُوحَهُ صَارَتْ صَخْرَةً كَوْنِيَّةً تَتَحَطَّمُ عَلَيْهَا هَذِهِ المَجَالِسُ العَابِرَةُ مَدَى الدُّهُورِ.

أَظَنَنْتَ حَقّاً أَنَّهُ بِمُجَرَّدِ أَنْ أَسْلَسَ لَكَ الجُمْهُورُ قِيَادَهُ، وَانْسَاقَتْ خَلْفَ نِدَائِكَ صَرَخَاتُ الدَّهْمَاءِ، أَنَّكَ حُزْتَ شَرْعِيَّةَ السَّمَاوَاتِ لِتَخْلُقَ قِيَماً جَدِيدَةً، وَتَمْحُوَ أُخْرَى كَوْنِيَّةً دُونَ أَنْ يَتَصَدَّى لَكَ نَامُوسُ الوُجُودِ؟!

كَمْ أَنْتَ وَاهِمٌ فِي حِسَابَاتِ المَجْدِ العُلْوِيّ! حِينَمَا تَحْسَبُ أَنَّ هُتَافَ العُمْيَانِ فِي سَاحَاتِ المَتَاهَةِ يَمْنَحُ البَاطِلَ جَوْهَراً ثَابِتاً، أَوْ يَهَبُ العَرَابَ صَلَاحِيَّةَ النَّحْتِ الأَزَلِيّ

أَفَلَمْ تَتَدَبَّرْ سِرَّ تِلْكَ الصَّخْرَةِ العَارِيَةِ الَّتِي ارْتَحَلَتْ فِي زَمَنِ الغَوَابِرِ؟ لَقَدْ صَنَعَ ذَلِكَ الحَكِيمُ لِكَيْنُونَتِهِ هَيْبَةً كَوْنِيَّةً خَالِدَةً؛ وَلَكِنَّهُ لِكَيْ يَكْسِبَ تِلْكَ المَهَابَةَ الأَبَدِيَّةَ، اضْطُرَّ أَنْ يَخْضَعَ لأَخْلَاقِ أَعْدَائِهِ نَفْسِهِمْ، وَأَنْ يَتَجَرَّعَ سُمَّ مَحْكَمَتِهِمْ الرَّعَاعِيَّةِ طَائِعاً مَرْفُوعَ الرَّأْسِ تَعَالِياً عَلَيْهِمْ!

فَهَلْ تَرْتَضِي لِنَفْسِكَ أَنْ تَنْحَنِيَ لِمِعْيَارِ خُصُومِكَ، وَتَسْتَعِيرَ نِظَامَهُمْ فَقَطْ لِتَشْتَرِيَ طَاعَةَ الحُشُودِ، وَتَزِيدَ مِنْ طَاقَةِ الِانْجِذَابِ حَوْلَ عَرْشِكَ الوَاهِي؟

تَحَمَّلْ إِذَنْ هَذِهِ النَّبْرَةَ الآتِيَةَ مِنْ فَوْقِ المَجَازِ؛ فَأَنَا كَالنَّسْرِ المُمَوَّهِ بِالهَوَاءِ، أُحَلِّقُ بَعِيداً كَيْ أُفَتِّشَ فِي أَعْمَاقِكَ عَمَّا تَحْجُبُهُ عَنِ العَالَمِينَ.

وَتَأَكَّدْ أَنَّنِي لَا أَحْمِلُ إِلَيْكَ مَوَاعِظَ السَّالِكِينَ وَلَا نُصْحَ الضُّعَفَاءِ، بَلْ جِئْتُ لِأَكْشِفَ لَكَ عَنْ مِرْآةِ رَغْبَتِكَ، وَأُرِيَكَ مَا كُنْتَ تَتَشَهَّى سَمَاعَهُ فِي أَشَدِّ مَخَابِئِ نَفْسِكَ ظُلْمَةً، حَيْثُ تَبْدَعُ لِكَيْنُونَتِكَ طُرُقاً أَعْنَفَ لِلصُّمُودِ

قَدْ كُنْتَ تُرِيدُ أَنْ تَسْمَعَ أَنَّكَ بَلَغْتَ المَقَامَ الأَسْمَى؛ حَيْثُ تَقِفُ مُنْفَرِداً لِتَكُونَ أَنْتَ مَنْ يَضَعُ الأَخْلَاقَ وَيَنْحَتُ مَعَالِمَ الخَيْرِ وَالشَّرِّ بِأَنَامِلَ مِنْ حَجَرٍ.

هَا أَنَا أُعْطِيكَ مَا أَرَدْتَ... لَكِنَّنِي أُرِيكَ أَيْضاً مَا تَعْلَمُهُ فِي قَرَارَةِ نَفْسِكَ وَتَخْشَاهُ: أَنَّكَ رَغْمَ هَذَا السُّلْطَانِ، لَمْ تَلِجْ بَعْدُ مَقَامَ الإِلَهِ!

أَنْتَ نَاحِتٌ يَمْلِكُ جَسَارَةَ الخَلْقِ لَكِنَّهُ لَا يَمْلِكُ مُطْلَقَ الكَوْنِ، وَالآنَ.. بَعْدَمَا أَسَأْتَ الحُكْمَ وَتَشَظَّى المِعْيَارُ، انْظُرْ كَيْفَ يَسْتَوِي جَوْهَرُكَ تَعَالِياً بَيْنَ نَارِ الخَلْقِ وَحُدُودِ البَشَرِيَّةِ

وَقَدْ نُقِشَ فِي مَرَاقِي العُزْلَةِ النَّاقِيَةِ أَنَّ سَادِنَ الصَّدْعِ الأَوَّلِ كَانَ أَوَّلَ مَنْ أَشْعَلَ نَارَ الِانْقِلَابِ الكُبْرَى عَلَى الأَلْوَاحِ الغَابِرَةِ

وَتَبْدِيلِ المَعَايِيرِ المَعْتُوبَةِ؛ لَكِنَّهُ – بِكِبْرِيَائِهِ الجَبَّارِ – كَانَ يَبْصُقُ عَلَى الوَهْمِ القَائِلِ بِأَنَّ هَذَا المَخَاضَ الكَوْنِيَّ هُوَ قِطْفٌ دَانٍ، أَوْ سِرٌّ يُمْكِنُ

أَنْ تَعْبَثَ بِهِ خِفَّةُ مَعْدِنِ الخَسَاسَةِ الرَّاخِي، أَوْ ذَلِكَ الغُثَاءُ المَصْبُوبُ فِي مَجَارِي الزَّيْفِ

فِي أَسْفَارِهِ المَهِيبَةِ، أَعْلَنَ (صَاحِبُ النُّبُوءَةِ المَعْزُولَةِ) أَنَّ خَلْقَ أَقْدَارٍ أَخْلَاقِيَّةٍ جَدِيدَةٍ لَيْسَ نُزْهَةً عَابِرَةً، بَلْ هُوَ طَرِيقٌ صَعْبٌ يَتَطَلَّبُ رِجَالاً عُظَمَاءَ، جُبِلُوا كَأَلْوَاحٍ مِنْ جَسَارَةٍ

هَؤُلَاءِ فَقَطْ هُمْ مَنْ يَصْمُدُونَ فِي وَحْشَةِ العُزْلَةِ النَّاقِيَةِ، وَيَتَحَمَّلُونَ بِشَجَاعَةٍ أَلَمَ النَّحْتِ الذَّاتِيِّ لِيَصْنَعُوا جَوْهَرَهُمُ الفَرِيدَ.

لَقَدْ خَضَعَتْ هَذِهِ النُّفُوسُ لِمَهَابَتِكَ؛ لِأَنَّهَا عَبِيدٌ لَا تَسْتَطِيعُ انْقِيَادَ ذَاتِهَا! وَبِمَا أَنَّكَ عَاشَرْتَهُمْ، وَخُضْتَ مَعَهُمْ فِي ذَلِكَ النَّهْرِ الرَّاكِدِ لِزَمَنٍ طَوِيلٍ قَبْلَ أَنْ تَنْتَفِضَ لِتَبْحَثَ عَنْ مَصَالِحِكَ العُلْيَا، فَمَا عَلَيْكَ الآنَ إِلَّا أَنْ تَقُودَهُمْ فَحَسْبُ.

إِنَّهُمْ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً، وَأَخْلَاقُهُمْ لَيْسَتْ مَبْنِيَّةً عَلَى يَقِينٍ، وَلَا يَمْلِكُونَ أَنَامِلَ البِنَاءِ؛ فَابْنِ لَهُمْ أَخْلَاقاً جَدِيدَةً تَلِيقُ بِعَمَاهُمْ

فَهَكَذَا إِذَنْ، بِمَا أَنَّكَ عَاشَرْتَهُمْ زَمَناً، وَكُنْتَ جُزْءاً مِنْ ذَلِكَ النَّهْرِ الرَّاكِدِ الَّذِي يَجْرِفُ العُمْيَانَ قَبْلَ أَنْ تَنْتَفِضَ رُوحُكَ، وَقَبْلَ أَنْ تَقِفَ

صَامِداً لِتُبْصِرَ مَصَالِحَكَ العُلْيَا شَاخِصَةً أَمَامَكَ؛ فَقَدْ وَجَبَ عَلَيْكَ الآنَ أَنْ تَفُكَّ عَنْ كَاهِلِكَ أَغْلَالَ المُسَاوَاةِ مَعَهُمْ.

فُكَّ عَنْ رَقَبَتِكَ نَامُوسَهُمْ القَدِيمَ، وَتَقَدَّمْ لِتَكُونَ اليدَ الَّتِي تَصْنَعُ القَدَرَ، لَا المَوْجَةَ الَّتِي تَنْسَاقُ مَعَ التَّيَّارِ.

إِنَّ مَنْ أَمْضَى مَعَ المَجْهُولِ زَمَناً طَوِيلاً ثُمَّ أَبْصَرَ نُورَ هَدَفِهِ، لَا يَعُودُ إِلَى الخَلْفِ لِيَسْتَشِيرَ الغَارِقِينَ، بَلْ يَمُدُّ لَهُمْ حَبْلَ أَخْلَاقِهِ الجَدِيدَةِ لِيَجُرَّهُمْ نَحْوَ الصُّعُودِ، أَوْ يَتْرُكَهُمْ لِمَصِيرِهِمْ حَيْثُ لَا يَقْوَى عَلَى الصُّمُودِ إِلَّا مَنْ جَسَرَ

لَكِنَّ الظَّاهِرَ المَهِيبَ يَصْفَعُ غُرُورَهُ بِحَقِيقَةٍ صَارِمَةٍ؛ فَقَدْ جَاءَ (حَارِسُ التَّشْرِيعِ العَقْلِيّ) لِيَهْدِمَ مَعْبَدَ النَّفْعِيَّةِ الرَّخِيصِ، ذَلِكَ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّ الأَخْلَاقَ تَجْرِي فِي مَجَارِي المَصَالِحِ، أَوْ أَنَّ مَا يُرْضِي أَهْوَاءَ الغَوْغَاءِ هُوَ الخَيْرُ المُطْلَقُ!

لَقَدْ أَقَامَ سَوْطَهُ الكَوْنِيَّ قَائِلاً: 'لَا تَفْعَلْ إِلَّا مَا تَرْتَضِيهِ أَنْ يَكُونَ قَاعِدَةً كَوْنِيَّةً لِلْبَشَرِيَّةِ جَمْعَاءَ

إِنَّ الأَخْلَاقَ نَامُوسٌ عَقْلِيٌّ صَارِمٌ، جِلْمُودٌ لَا يَنْحَنِي لِصَخَبِ البَشَرِ، وَلَا يَتَزَحْزَحُ قِيدَ أَنْمُلَةٍ أَمَامَ هُتَافَاتِ الحُشُودِ المَمْصُوخَةِ

لقَدْ تَرَدَّى ذَلِكَ المِثَالِيُّ فِي وَهْمِ التَّجْرِيدِ، فَاسْتَحَالَتْ بَصِيرَتُهُ إِلَى ثَرْثَرَةٍ بَارِدَةٍ تُعَالِجُ العَدَمَ!

فَيَا مَنْ يَقِفُ الآنَ عَلَى حَدِّ التَّعَطُّشِ، حَائِراً بَيْنَ مَطَارِقِ التَّشْرِيعِ وَنَحْتِ السُّنَنِ، اعْلَمْ أَنَّ التَّأْسِيسَ لَيْسَ أُمْسِيَةً رَخِيصَةً تُبَاعُ فِي سُوقِ الكَلَامِ.

إِنَّ عَلَى صَانِعِ الأَقْدَارِ أَنْ يَمْتَطِيَ عَمَى الهَيْجَانِ الِانْفِعَالِيِّ، وَأَنْ يَسْتَقْطِبَ طَاقَاتِ المَزِيجِ الطِّينِيِّ العَابِرِ نَحْوَ مَدَارَاتِهِ المَحْجُوبَةِ؛ فَمِنْ رَحِمِ ذَلِكَ الِاضْطِرَابِ وَحْدَهُ، تَتَخَلَّقُ أَلْوَاحُ القِيَمِ الجَدِيدَةِ، لَا مِنْ فَيْضِ العِبَارَاتِ المُنَمَّقَةِ.

أَمَّا إِذَا ارْتَضَيْتَ الِاتِّكَاءَ عَلَى أَقْنِعَةِ الأَشْبَاحِ، فَهَنِيئاً لَكَ عُقْمُ الدَّرْبِ السَّهْلِ. حَتَّى قُوَى الغَيْبِ تَبْتَغِي أَنْ يُجْبَى الثَّنَاءُ لِحِسَابِهَا فِي نِهَايَةِ المَطَافِ؛ فَمَاذَا تَكُونُ أَنْتَ فِي حَصَادِ المَتَاهَةِ؟

إِنَّكَ لَنْ تَكُونَ سَيِّداً لِعَقْلِكَ إِلَّا إِذَا صِرْتَ جَلَّاداً لِعَوَاطِفِكَ، وَسَائِقاً لِعَوَاطِفِ مَنْ تَقُودُ. فَالَّذِي يَصْنَعُ الأَخْلَاقَ لَا يَحْمِلُ رَحْمَةً، بَلْ يَحْمِلُ نَامُوساً؛ فَإِمَّا أَنْ تَكُونَ العَبْدَ الأَخِيرَ لِآلِهَةٍ مَضَتْ، أَوْ السَّيِّدَ الأَوَّلَ لِجَحِيمِكَ المُنَظَّمِ

مِعْرَاجُ الإِنْسَانِيَّةِ وَسُلْطَانُ الرَّحْمَةِ

إِنَّ 'هَنْدَسَةَ الشَّفَقَةِ' تَقْتَضِي أَنْ لَا تَبْكِيَ مَعَ البَاكِينَ فِي قَاعِ الِانْفِعَالِ، بَلْ أَنْ تَمْلِكَ الرُّؤْيَةَ التَّشْرِيعِيَّةَ الَّتِي تَحْتَوِي شَتَاتَهُمْ؛ فَالتَّحْرِيضُ البَصِيرُ لِهَيْجَانِ الجَمَاهِيرِ، وَتَوْجِيهُ طَاقَاتِهِمُ العَمْيَاءِ نَحْوَ مَصْلَحَةِ المَصِيرِ، هُوَ التَّجَلِّي الأَعْظَمُ لِحُبٍّ يَعْرِفُ كَيْفَ يَبْنِي

فَلَا يَنْسَ هَذَا المُتَعَطِّشُ لِلْسِّيَادَةِ – وَهُوَ يَرُومُ بِنَاءَ العَلْيَاءِ – كَيْفَ يَفْتَحُ لِلرَّحْمَةِ كُلَّ الأَبْوَابِ وَالفَضَاءُ!

عَلَيْهِ أَنْ لَا يَسْلُبَ رُوحَهُ حَقَّ الشُّجُونِ وَالِانْطِوَاءُ، فَيَعْرِفَ كَيْفَ يَحْزَنُ فِي عُمْقِ الظَّلْمَاءِ، وَكَيْفَ يَبْكِي إِذَا ضَاقَتْ بِهِ الأَرْجَاءُ!

لَيْسَ عَمًى وَلَا اِنْكِسَاءً، بَلْ لِأَنَّ القَائِدَ الَّذِي لَا يَذُوقُ أَلَمَ الأَحْزَانِ، لَا يَمْلِكُ سِرَّ الِاحْتِوَاءُ، وَلَنْ يَمُدَّ لِلْمَزِيجِ الطِّينِيِّ حَبْلَ الشِّفَاءِ وَالنَّجَاءُ

عَلَيْهِ أَنْ لَا يَنْجَرِفَ مَعَ سُيُولِ التَّقَالِيدِ الَّتِي تَسْكُنُ رُوحَ المُجْتَمَعِ فَيَنْسَى هُوِيَّتَهُ؛ بَلْ هُوَ القَائِدُ الَّذِي وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَقْطَعَ وَيَحْتَقِرَ كُلَّ مَا يَقِفُ ضِدَّ نَامُوسِ الإِنْسَانِيَّةِ وَرِفْعَتِهَا.

لَا عَصْرَ يَحْتَكِرُ رُؤْيَتَهُ، وَلَا إِلَهَ يَمْنَعُهُ إِذَا سَارَ بِتَشْرِيعِ الصَّفَاءِ، وَلَا تَسْتَطِيعُ الغَرَائِزُ الأَنَانِيَّةُ كَالَّتِي تَعِيشُ فِيهَا الجَمَاهِيرُ أَنْ تَعْتَرِضَ طَرِيقَهُ أَوْ تَثْنِيَ عَزْمَهُ عَنِ الصُّعُودِ.

إِنَّ الضَّعِيفَ هُوَ مَنْ يَقْتُلُ الإِنْسَانِيَّةَ فِي نَفْسِهِ؛ فَبِقَتْلِهِ لِتَمَيُّزِهِ، يَعْتَقِدُ أَنَّهُ غَدَا جُزْءاً مِنَ القَطِيعِ المَقْبُولِ.

أَمَّا أَنْتَ، فَأَنْتَ المُنْعَزِلُ الَّذِي مَشَى وَحِيداً فِي مَجَاهِلِ الغَابَاتِ، وَسَبَرَ الأَلْغَازَ الَّتِي حَاطَتْ بِمَصِيرِ البَشَرِ فِي ظُلُمَاتِ الكُهُوفِ؛ لِتَفُكَّ عَنْهُمْ طَلَاسِمَ النَّحْسِ وَالشَّقَاءِ

وَالآنَ، بَعْدَ أَنْ عُدْتَ لِلْمَزِيجِ الطِّينِيِّ مِنْ غَيْبَتِكَ الكُبْرَى، فَعَلَيْكَ أَنْ تَمْنَحَهُمْ رُؤْيَةً حَقِيقِيَّةً لِمَا هِيَ الإِنْسَانِيَّةُ؛ فَأَنْتَ وَحْدَكَ مَنْ صَفَا جَوْهَرُهُ لِيَعْرِفَ نَقَاءَهَا.

أَنْتَ أَيُّهَا المَلِيءُ بِالخِبْرَاتِ العَمِيقَةِ، وَالمُتَدَثِّرُ بِالوَعْيِ الصَّارِمِ، قُمْ وَارْفَعْ صَوْتَكَ فَوْقَ الرُّؤُوسِ، فَأَنْتَ وَحْدَكَ صَاحِبُ التَّشْرِيعِ فِي هَذَا الفَضَاءِ

حِينَ تَرْمُقُ هَذَا القِتَالَ المَسْعُورَ، وَتُعَايِنُ أَلَمَ الأَرْضِ، فَعَلَيْكَ أَنْ تَبْكِيَ فِي أَغْوَارِ عُزْلَتِكَ، وَأَنْ يَشْتَعِلَ فِي صَدْرِكَ لَهَبُ الغَضَبِ؛ لِأَنَّكَ أَنْتَ – وَحْدَكَ – مَنْ يَعْرِفُ المَصْلَحَةَ الحَقِيقِيَّةَ لِهَؤُلَاءِ البُؤَسَاءِ

حَتَّى ذَلِكَ الإِلَهُ الَّذِي سَيَكُونُ خَصْمَكَ الأَكْبَرَ فِي قَادِمِ المَوَاعِيدِ، لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَتَصَوَّرَ مَدَى مُعَانَاةِ البَشَرِ، رَغْمَ أَنَّهُمْ زَعَمُوا أَنَّهُ هُوَ مَنْ صَنَعَ هَذَا البَلَاءَ!

فَلْتَكُنْ دُمُوعُكَ البَاطِنِيَّةُ حِمَماً تُعِيدُ صِيَاغَةَ الوُجُودِ، وَتُعْلِنُ بَدْءَ زَمَنِ النَّحْتِ وَالِاسْتِعْلَاءِ.

لَقَدْ قِيلَ إِنَّ الإِلَهَ صَنَعَهُمْ وَأَلْقَاهُمْ فِي كَوْكَبٍ يَسْبَحُ تَائِهاً فِي مَدَارِجِ الخَلَاءِ، بَلْ زَعَمَ آخَرُونَ أَنَّهُ هُوَ الفَضَاءُ نَفْسُهُ وَهُوَ هَذَا الجِرْمُ المُعَلَّقُ! لَكِنَّكَ تَرَى النَّجْمَ يَنْصَهِرُ فِي جَبَرُوتِهِ غَيْرَ مُبَالٍ بِأَبْعَادِ الكَوْنِ وَلَا بِمَنْ فِيهِ مِنَ الأَحْيَاءِ.

الفَوْضَى تَعُمُّ، وَسُمْعَةُ هَذَا المَعْبُودِ تَتَهَاوَى؛ فَإِنْ كَانَ لَا يَقْدِرُ عَلَى كَبْحِهَا فَهُوَ ضَعِيفٌ، وَالضَّعِيفُ لَا وُجُودَ لَهُ، إِذْ يَنْسَحِقُ مَنْصَهِراً تَحْتَ كَوْمَةِ العَوَاصِفِ وَالعَدَمِ البَارِدِ

قِفْ مَلِيّاً أَيُّهَا الرَّائِي.. فَإِنَّ فِي تِلْكَ القِصَصِ الغَابِرَةِ دَرْساً خَفِيّاً يَجِبُ أَنْ لَا يَفُوتَكَ عِلْمُه

هُنَاكَ دَوْماً ذَرَّةٌ مِنَ الحَقِيقَةِ تَتَوَارَى فِي أَحْشَاءِ الأَسَاطِيرِ، وَإِنْ كَانَتْ تَنْعَكِسُ عَلَى مَرَايَا الجَمَاهِيرِ بِأَشْكَالٍ مُغَايِرَةٍ تَمَاماً لِجَوْهَرِهَا الأَصِيلِ؛ فَالخَلْقُ يُشَوِّهُونَ البَصِيرَةَ لِيَجْعَلُوهَا عَلَى مَقَاسِ خَوْفِهِمْ.

اشْفِقْ عَلَيْهِمْ وَارْحَمْ ضَعْفَهُمْ، حَتَّى وَهُمْ يُمَزِّقُونَ بَعْضَهُمْ بَعْضاً فِي سَاحَاتِ العَمَى؛ فَمَا هُمْ إِلَّا أَدَوَاتٌ فِي مَخْضِ الصَّيْرُورَةِ.

وَكُلُّ مَنْ مَاتَ مِنْهُمْ فِي سَبِيلِ رُؤْيَتِكَ، وَاحْتَرَقَ لِتَحْقِيقِ مَصَالِحِكَ العُلْيَا، فَابْكِ عَلَيْهِ بِدُمُوعِ الخَفَاءِ، وَاجْعَلْ مِنْ جَسَدِهِ المُسْتَهْلَكِ رَمَاداً مُقَدَّساً تَتُرُّهُ بِيَدَيْكَ؛ لِيَكُونَ سَمَاداً يُغَذِّي تُرْبَةَ حَدِيقَتِكَ المُسْتَقْبَلِيَّةِ

لَقَدْ تَوَاطَأَ شُعَرَاءُ العَالَمِ جَمِيعاً عَلَى مَسْخِ صُورَةِ السَّيِّدِ، فَجَعَلُوا القَائِدَ جَبَّاراً أَعْمَى لَا يَعْرِفُ لِلرَّحْمَةِ سَبِيلاً! دَسُّوا فِي نُصُوصِهِمْ سُمُوماً تَقْتُلُ نَبْضَ الإِنْسَانِيَّةِ، حَتَّى أَفَاضُوا عَلَى الأَرْضِ نُهُوراً مِنَ السَّذَاجَةِ، وَأَوْهَامَ التَّحَزُّبِ، وَتَقْدِيسَ الِاسْتِشْهَادِ المَجَّانِيِّ.

أَمَّا أَنْتَ.. أَيُّهَا المُتَعَطِّشُ لِتَحْقِيقِ مَصَالِحِ المَصِيرِ، فَإِنَّ مَهَمَّتَكَ مُغَايِرَةٌ تَمَاماً لِخُرَافَاتِهِمْ؛ إِنَّكَ أَكْثَرُ إِنْسَانِيَّةً مِنْ رِقَّةِ شِعْرِهِمْ البَارِدِ!

عَلَيْكَ أَنْ تَسْكُبَ جُزْءاً كَبِيراً مِنْ نَقَاءِ إِنْسَانِيَّتِكَ فِي نُفُوسِ هَؤُلَاءِ الضُّعَفَاءِ لِتَرْفَعَهُمْ، لَا أَنْ تُحَارِبَ القَادَةَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى شَاكِلَتِكَ

وَمِثَالِكَ، فَمَقَامُكَ الأَسْمَى هُوَ الصِّيَاغَةُ وَالِاحْتِوَاءُ، لَا المُنَافَسَةُ الجَوْفَاءُ

ابْكِ حِينَ تَكُونُ مُنْفَرِداً فِي عُزْلَتِكَ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَحْتَقِرَ الشَّفَقَةَ كَمَا فَعَلَ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَصَابَهُمُ الجُنُونُ؛ فَوَلَدَتْ تَحْرِيضَاتُهُمُ المَسْعُورَةُ مَجَازِرَ جَعَلَتْ أَقْزَامَ البَشَرِ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ بَاتُوا ذَوِي هَيْبَةٍ وَقُوَّةٍ جَبَّارَةٍ!

إِنَّ الصَّاحِبَ القَوِيَّ، صَاحِبَ الهَيْبَةِ الحَقِيقِيَّةِ، هُوَ مَنْ يَخْتَرِقُ بِوَعْيِهِ كُلَّ مَفَاهِيمِ العُصُورِ البَادِيَةِ وَالقَادِمَةِ؛ فَيُغَذِّي الإِنْسَانِيَّةَ مِنْ كُلِّ مَتَاعِهَا وَأَحْرَازِهَا فِي أَعْمَاقِ رُوحِهِ، وَلَا يَتَرَدَّدُ أَنْ يَبْكِيَ مِنْ أَجْلِهِمْ، حَتَّى وَإِنْ كَانَ لَا يَمْلِكُ سُلْطَاناً لِإِيقَافِهِمْ وَهُمْ يَرْتَكِبُونَ أَشَدَّ المَذَابِحِ ضِدَّ بَعْضِهِمْ بَعْضاً.

حِينَ تَقِفُ بِلَا حَوْلٍ وَلَا قُوَّةٍ، وَالدِّمَاءُ تَنْهَمِرُ كَالأَنْهَارِ تَحْتَ أَقْدَامِكَ، ارْفَعْ بَصَرَكَ إِلَى السَّمَاءِ وَقُلْ بِكُلِّ جَسَارَةِ الوَعْيِ: لَا إِلَهَ هَاهُنَا!

فَلَوْ كَانَ ثَمَّةَ إِلَهٌ يَرْقُبُ هَذَا الفَزَعَ، لَمَا كُنْتُ أَنَا مَوْجُوداً بِمَصَابِيحِ بَصِيرَتِي، وَلَمَا كَانَتْ هَذِهِ الإِنْسَانِيَّةُ المَكْلُومَةُ مَوْجُودَةً تُعَانِي وَحْدَهَا فِي مَهَبِّ الكَوْنِ!

إِنَّ صَمْتَ العَلَاءِ هُوَ التَّوْقِيعُ الأَبَدِيُّ عَلَى أَنَّكَ أَنْتَ – وَوَعْيُكَ وَحْدَهُ – مُنْتَهَى الحَقِيقَةِ وَمَبْتَدَأُ العَزَاءِ

لا تَقْسِمِ البَشَرَ شِيَعاً حَسَبَ اخْتِلَافَاتِهِمُ الظَّاهِرَةِ أَوْ خَفَايَاهُمُ البَاطِنَةِ؛ فَمَا أَنْتَ إِلَّا سَائِرٌ فِي رِكَابِ قَدَرِكَ، يَا مَنْ جُبِرَتْ إِرَادَتُهُ عَلَى الاِنْصِيَاعِ لِجَبَرُوتِ الهَيْبَةِ وَفَيْضِ المَشَاعِرِ الكَوْنِيَّةِ!

إِنَّ عَيْنَيْكَ تَرْمُقَانِ الكَوَاكِبَ السَّابِحَةَ فِي نَأْيِ الفَضَاءِ، وَلِذَلِكَ وَجَبَ عَلَيْكَ أَنْ تَمْضِيَ قُدُمًا نَحْوَ تَحْقِيقِ غَايَاتِكَ المَحْتُومَةِ، دُونَ أَنْ تَقْحَمَ نَفْسَكَ فِي صَغَائِرِ شُؤُونِهِمْ. لِيَقْتَتِلُوا إِذَنْ، وَلْيَسْفِكُوا الدِّمَاءَ فِي جَلَبَةِ الأَهْوَاءِ؛ حَيْثُ تَتَصَادَمُ عَاطِفَةٌ بِعَاطِفَةٍ، وَيَقُومُ عِدَاءُ الأَخْصَامِ ضِدَّ مَصَالِحِكَ، فَتِلْكَ هِيَ دَيْمُومَةُ الصَّيْرُورَةِ العَمْيَاءِ.

إِنَّ مَا يَعْنِيكَ فِي هَذَا المَقَامِ هُوَ عَوَاصِفُ البَشَرِ وَأَهْوَاؤُهُمْ، لَا مَاهِيَّاتُهُمْ أَوْ طَبَائِعُ أَفْرَادِهِمْ؛ فَلَا تُفَضِّلْ غَنِيّاً عَلَى فَقِيرٍ، وَلَا فَقِيراً عَلَى غَنِيٍّ.

دَعْهُمْ يَتَنَاحَرُونَ وَيَقْتَتِلُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ، مَا دَامَتْ عَوَاطِفُهُمُ الهَائِجَةُ مَقْطُورَةً فِي رِكَابِ هَيْبَتِكَ المُشِعَّةِ الَّتِي تَأْسِرُ أَلْبَابَهُمْ!

وَفِي حَقِيقَةِ الأَمْرِ، مَا أَنْتَ إِلَّا إِنْسَانٌ يَفِيضُ إِنْسَانِيَّةً، لَكِنَّكَ غَدَوْتَ ضَحِيَّةً لِهَذَا المَدَارِ الكَوْنِيِّ، وَقُرْبَاناً لِلْهَيْبَةِ وَالنُّبُوءَةِ؛ فَلَا تَكْشِفْ لَهُمْ عَنْ كَنِينِ سِرِّكَ هَذَا!

بَلْ لِتَكُنْ عَيْنَاكَ شَاخِصَتَيْنِ دَوْماً، تَخْتَرِقَانِ سُدُمَ الفَضَاءِ كَالشِّهَابِ الثَّاقِبِ، أَوْ كَمَرْكَبَةٍ كَوْنِيَّةٍ تَجُوبُ المَجَرَّاتِ البَعِيدَةَ، بَحْثاً عَنْ كَوْكَبٍ بِكْرٍ تَخْتَبِئُ فِيهِ مَصَالِحُكَ العُلْيَا.. وَمَصَالِحُ البَشَرِيَّةِ جَمْعَاءَ.

إِنَّ الدَّهْرَ يَتَعَقَّبُ خُطَاكَ بِرَكْضٍ لَا يَهْدَأُ، وَيُطَارِدُ كَيْنُونَتَكَ فِي مَضَامِيرِ الصَّيْرُورَةِ؛ لِتَجِدَ نَفْسَكَ فِي نِهَايَةِ المَطَافِ مَقْذُوفاً بَيْنِ مَخَالِبِ الكَوَاسِرِ، وَمُصْطَدِماً بِعَرِينِ الذِّئَابِ المُتَعَطِّشَةِ لِلْمَزِيقِ

عَدُوُّكَ الأَوَّلُ وَالأَخِيرُ هُوَ هَذَا المَحْوُ الغَامِضُ الرَّابِضُ فِي تَقَاطِيعِ طَبِيعَتِكَ؛ ذَلِكَ الزَّائِرُ السِّرِّيُّ الَّذِي لَا شَكْلَ لَهُ وَلَا صَوْتَ، لَكِنَّهُ يَقْضِمُ كَيْنُونَتَكَ فِي كُلِّ طَرْفَةِ عَيْنٍ!

هُوَ الخَصْمُ العَنِيدُ الَّذِي وَجَبَ عَلَيْكَ أَنْ تَقْهَرَ حُضُورَهُ المُرْتَقِبَ فِي دَاخِلِكَ عَشْرَ مَرَّاتٍ، وَتَسْحَقَ ظِلَّهُ المُتَسَلِّلَ إِلَى بَصِيرَتِكَ، قَبْلَ أَنْ يَجْتَرِئَ عَلَى هَزِيمَتِكَ مَرَّةً وَاحِدَةً وَأَخِيرَةً!

وَإِيَّاكَ أَنْ تَصُبَّ غَضَبَ هَذِهِ المَعْرَكَةِ المَخُوفَةِ عَلَى الآخَرِينَ مِنَ البَشَرِ، فَمَا هُمْ إِلَّا هَبَاءٌ يَعْبُرُ مَعَكَ هَذَا اللَّيْلَ الطَّوِيلَ؛ بَلْ كَفْكِفْ سَوْرَةَ نَارِكَ، وَاجْعَلْ صِرَاعَكَ مَعَ هَذَا الغُمُوضِ سِرّاً مُقَدَّساً، لِتَخْرُجَ مِنْ عُزْلَتِكَ خَالِداً بِأَثَرِكَ، مُتَسَامِياً فَوْقَ سَاعَةِ السُّمُوطِ

أُخَاطِبُكَ أَنْتَ.. يَا مَنْ تَعِي جَبَرُوتَ هَيْبَتِكَ وَمَقَامَ قِيَادَتِكَ فِي العَلَاءِ: إِيَّاكَ أَنْ تَنْسَى الإِنْسَانِيَّةَ، أَوْ تَغْتَالَ طَهَارَةَ الرَّحْمَةِ فِي قَلْبِكَ نُزُوعاً لِلْفَنَاءِ!

كُنْ رَحِيماً ذَا شَفَقَةٍ سَامِقَةٍ تَعْلُو فَوْقَ المَدَارَاتِ وَالأَجْوَاءَ؛ كُنْ أَسْمَى مِنَ المَوْتِ الغَامِضِ، وَأَجَلَّ مِنَ الآلِهَةِ المَزْعُومَةِ، وَأَقْوَى مِنَ الزَّمَنِ الَّذِي يَطْوِي الأَسْمَاءَ! كُنْ أَنْتَ هَذَا الفَيْضَ كُلَّهُ إِنْ أَرَدْتَ النَّجَاةَ مِنْ حَبَائِلِ الِاسْتِبْدَادِ، وَأَنْ لَا تَقَعَ فِي أَفْخَاخِ الحَاكِمِ الظَّالِمِ مَعَ مَنْ بَاءُوا بِالعَدَاءَ.

إِنَّ تِلْكَ القِصَصَ النَّاضِحَةَ بِالكِبْرِيَاءِ الأَعْمَى قَدْ وَلَّى زَمَانُهَا، وَغَدَتْ مَحْضَ أَسَاطِيرَ مَنْسِيَّةٍ فِي عَوَاصِفِ أَهْوَاءِ الجَمَاهِيرِ وَالغَوْغَاءَ؛ فَلَا تَرْتَطِمْ بِهَذَا المَأْزِقِ الوَخِيمِ فَتَكُونَ مِنَ الضُّعَفَاءَ

فَمَا أَنْتَ إِلَّا إِنْسَانٌ بَصِيرٌ، رَأَى العُزْلَةَ العَارِيَةَ تَنْعَكِسُ فِي عَيْنَيْهِ عِنْدَ المَسَاءَ، وَوَقَفَ يَرْقُبُ أَنْهَارَ الدَّمِ وَالحَيَاةِ، وَتَأَمَّلَ الكَوَاكِبَ السَّابِحَةَ فِي خُطُوطِ الفَضَاءِ المَمْدُودَةِ بِالظُّلْمَةِ وَالضِّيَاءَ، وَرَمَقَ السَّمَاءَ فِي صَمْتِهَا المَهِيبِ يَوْمَ انْطَفَأَ النِّدَاءَ

أَنْتَ الَّذِي دَاعَبَتْ أَنَامِلُهُ شَعْرَ الحَيَوَانَاتِ فِي طَلَاقَةِ البَرِّيَّةِ بِلَا خَفَاءَ، وَمَضَى يَسْأَلُ الكَوْنَ مُسْتَفْهِماً: 'لِمَاذَا؟ وَكَيْفَ؟' بَدَلًا مِنْ أَنْ يَكُونَ نُسْخَةً مَمْسُوخَةً مِنْ طُغَاةِ المَاضِي البُلَهَاءَ

فَلْتَكُنْ أَسْئِلَتُكَ هِيَ عَرْشُكَ الأَسْمَى، وَلْتَكُنْ رَحْمَتُكَ هِيَ هَيْبَتُكَ الأَبَدِيَّةُ المَشْحُونَةُ بِالبَهَاءَ.

تقديم

خَالد صودكا